عندما تمرض الفراشات

obeikan.com

الكتاب : عندما تمرض الفراشات

المؤلف : شريف محمد ثابت

تصميم الغلاف : شريف محمد ثابت

تدقيق لغوي : سارة صلاح

رقم الإيداع : 2015/22266

الترقيم الدولي : 978-977-977-006-3

الطبعة الأولى : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

عندما تمرض الفراشات

مجموعة قصصية

شريف محمد ثابت

نون للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلي كل من صدَّقوني وأحبوني ونصحوني بإخلاص..
إلى روح أبي الطاهرة
إلى أمي الغالية وإخوتي الأحباء
إلى زوجتي الأثيرة وأولادي الرائعين
إلى أصدقائي الأعزاء
إلى رفيق عمري وأخي: أ.د.محمد نجيب عبد الله
وإلى معشوقتي الجميلة: مصر!

أهديكم مجموعة من الحواديت.. أرجو أن تنال استحسانكم!

د.شريف محمد ثابت

obeikan.com

obeikan.com

قبل الآن

كانت مستلقية على سرير الفحص بالمستشفى وعيناها البنّيتان مفتوحتان عن آخرهما، وغشاوة رقيقة من الدموع تموّج النظرات أمام عينيها.. كانت تنظر هناك إلى أبيها وهو يتحدث مع طبيب ذي شعر أبيض، استلقت على كتفيه سماعة طبية سوداء فظة المظهر..

المربعات الكبيرة البيضاء في السقف فوق رأسها تضيء المكان.. كان حولها العديد من الأسرّة وحول كل سرير ستارة زرقاء فاتحة.. كتلك الستارة التي تحيط بفراشها بالكامل إلا من فرجة بسيطة كانت تتابع والدها من خلالها.. كانت تتمنى فقط لو أن ستارتها وردية اللون!

كانت لا تفهم ماذا يجري من حولها غير أنها خائفة أن يذهب (بابا) ولا ينتبه أنه نسيها هناك مستلقية على ذلك الفراش البارد المرتفع.. لقد علمتها (ماما) أنها إذا تاهت عنهم في السوق أن تذهب إلى رجل الأمن وتقول له: اسمي (هالة مصطفى) أنا عندي خمس سنوات.. وألّا تبكي أبدًا!

دارت بعينيها سريعًا ولم ترَ رجال أمن فعادت تعلق بصرها على ظهر والدها الواقف هناك يستمع إلى الطبيب ذي الشعر الأبيض والذي لا يكف عن الكلام..

خافت أن تنادي (بابا) أثناء حديثه مع الطبيب فيغضب منها أمام الجميع.. كانت تحب (بابا) ولا تريده أن يغضب منها..

لقد كان كل شيء على ما يرام.. كانت تلهو وتلعب ولم تشتكِ من بطنها أو رأسها أبدًا.. فقط كانت تبكي حينما تفوز عليها (مروة) ابنة خالتها في سباق الركض.. كانت لا تحب (مروة) فهي (شقية) ولا تسمع كلام أمها ودائمًا ما تفوز عليها..

الأسبوع قبل الماضي عندما أخذتها (ماما) إلى الحضانة لأول مرة أخذت تبكي.. كانت لا تريد أن تتركها أمها هناك وتذهب؛ فهي تحبها كثيرًا.. كانتا دائمًا ما تلعبان وترقصان سويًا وهما في المنزل وحدهما بعد أن يذهب (بابا) للعمل ويذهب (محمد) للمدرسة.. ولكنها بعد أيام بدأت تحب الحضانة، وعرفت كثيرًا من الفتيات هناك.. هل أخذها (بابا) للطبيب لأنها بكت وهي ذاهبة للحضانة أول مرة؟؟ هل أخبرته (ماما) بذلك الأمر؟

ما زال (بابا) يتحدث مع الطبيب.. ولكن لماذا يواصل النظر للأرض ثم يرفع عينيه لأعلى.. لماذا يمسح عينيه بأصابعه من حين لآخر.. مهلًا.. هاهو ينظر إليها مطوّلًا.. هل سنذهب أخيرًا؟؟؟

نهضت (هالة) وجلست على الفراش، ولكنها تسمرت مكانها واكتسى وجهها بخيبة الأمل حينما أشار لها والدها وهو يبتسم في وجوم بأن تنتظر مكانها قليلًا.. فهو حقيقة لا يعرف ماذا يقول لها أو لأمها.. لا يعرف ماذا يقول لنفسه هو شخصيًّا.. ما زالت الأمور مضببة في رأسه..

أقسم للطبيب إنها لم تشتكِ من مرض مزمن من قبل وأنهم لم يلاحظوا عليها أي شيءٍ غريبٍ.. ربما تلهث إذا لعبت كثيرًا.. ربما تغيّر لون شفتيها للأزرق إذا ما أسرف في دغدغتها.. كانت على الدوام بصحة جيدة حتى أنهم نادرًا ما ذهبوا إلى طبيب.

منذ يومين كانت تعاني من سعالٍ شديدٍ وارتفاع في الحرارة فأخذها للمستشفى.. فحصها الطبيب جيدًا.. ثم تلوَّن وجهه بالجدية وهو يطالع الأرقام المكتوبة على شاشة (المونيتور) أمامه ثم استدعى طبيبًا آخر يبدو أكثر خبرة.. طلب الطبيب الآخر أشعة عادية وعندما انتهوا من مراجعتها طلب أشعة صوتية على القلب.. لم يدرك الأب ماذا يجري، وعندما سأل أخبره الطبيب أنه يريد التأكد من أمرٍ ما.. كان كل ما يشغل باله أنه كان سيفوت مباراة الليلة في بطولة أوروبا بهذا الشكل.. ثم فكر للحظة: هل أحضر معه ما يكفي من نقود لكل هذا؟.. كل هذه الفحوصات وفي النهاية

يخبرونه أن كل شيء على ما يرام.. حقًا.. المستشفيات الخاصة كلها لصوص!

بعد أن انتهى الطبيب من عمل الأشعة تخيَّل أنه سيبتسم في وجهه ثم يعطيه وصفة طبية ويصافحه ويقول له أن يأخذ (هالة) للمنزل.. لكن الطبيب أخذه خطوتين بعيدًا عن سرير الفحص وطلب منه الجلوس قبالته على كرسي معدني بارد وبدأ يتكلم بصوت رصين عن إنهاك بالقلب بسبب ضمورٍ في شريان ما وثقبٍ في جدارٍ ما وثمة احتقانٍ في مكان ما! بدأ يتحدث عن مزيد من الفحوصات.. . بدأ يتحدث عن عملية جراحية خطيرة بالقلب!

ماذا؟؟...

كان الرجل لا يفقه من تلك التفاصيل الكثيرة التي يسردها الطبيب على مسامعه أي شيء غير أن (هالة) طفلته السمراء الرقيقة مصابة بمرض نادر وخطير بالقلب.. مرض تأخر تشخيصه كثيرًا ويستلزم عملية معقدة وعاجلة بالقلب.. عملية مخاطرها كثيرة.. وعدم إجرائها سريعًا هو حكم نافذ بالإعدام على الطفلة الجميلة..

لقد كان يخطط لعشاء شهي أمام مباراة لكرة القدم.. لم يكن هناك في العائلة من يشتكي بقلبه.. كيف يخبر أمها التي تنتظر عودتهما للمنزل مع زجاجة مضاد حيوي وخافض للحرارة ! يشعر أن رأسه كدلو مملوء بالماء والرمل.. الصدمة أكبر من أن يستوعبها.. يكاد يترنح ويغشى عليه.. أتراه يحلم؟ هل يستفيق الآن من نومه فيبتسم ويحمد الله على نعمه ويستعيذ من الشيطان الرجيم ويعاود النوم مجددًا؟ ولكنه للأسف كان واعيًا.. متيقظًا.. كل ما يحدث من حوله حقيقي وسخيف ومرعب.. لقد تبدلت حياتهم للأبد.. لقد انقلبت رأسًا على عقب..

قبل ساعة من الآن كانت حياة .. ومنذ هذه اللحظة صارت حياة أخرى تمامًا..

كانت (هالة) لا تزال جالسة في السرير.. لم يرقّ لها الطبيب كثيرًا.. لقد أمرها بخلع بلوزتها الجديدة ذات الألوان البراقة بل وأمرها بخلع فانلتها الداخلية المرسوم عليها قلوب حمراء كثيرة ثم ألبسها ذلك الرداء الأخضر السخيف.. إنه كبير عليها وهي تشعر بالبرد..

لقد وضع شيئًا غريبًا باردًا يشبه القلم على صدرها وأخذ يحرّكه فوق جلدها وهو ينظر على ألوان حمراء وزرقاء تتراقص على شاشة ذلك التلفاز الصغير بجواره.. ثم نهض وذهب ليتحدث مع (بابا) ومنذ ذلك الوقت وهما يتحدثان..

أووف.. لقد مرَّ وقت طويل.. .متى تذهب مع (بابا) إلى المنزل؟؟

(عملية دقيقة ولكن.. إن شاء الله خير.. الأمل كبير)

سمعت صوت الطبيب يقول ل(بابا) شيئًا عن (عملية).. أي عملية يتحدثان عنها؟؟ شعرت بجفافٍ في حلقها وتسارعت نبضاتها.. هل سيقومون حقًا بعمل عملية لها الآن؟؟ ألن تشاهد الكارتون الليلة؟ هي لا تعرف ماذا تعني الكلمة ولكنها تذكر منذ عام مضى عندما أجرى (محمد) أخوها الأكبر (عملية).. قبل العملية كان يمرض كثيرًا وكان يأخذ كثيرًا من الحقن وهو يبكي.. وبعد العملية كان يتألم من حلقه وأعطته (ماما) الكثير من المثلجات.. إنها تحب (الآيس كريم) ولكنها تخاف من الحقن فهي مؤلمة.. كما أنها لا تحب أن يمسكها (بابا) بين ذراعيه بقوة كي يتمكن الرجل الذي يعمل بالصيدلية أسفل بيتهم من إعطائها الحقنة..

ألن يذهبا للبيت..؟؟ إنها لا تريد عملية.. إنها تريد (ماما) الآن.. تريد أن تلعب معها.. تريد أن تنتهي من تلوين لوحتها لتريها لأبلة (سامية) غدًا

بالحضانة.. تريد أن تشاهد الكارتون وهي تتناول طعام العشاء فوق الأريكة.. تريد أن تذهب للمنزل!

استجمعت شجاعتها وهتفت باكية:

بابا.. بابا.. عاوزة أروّح!

التفت إليها والدها وأجفلت (هالة) للحظة عندما رأت وجهه مبلل وعيناه حمراوان.. ماذا حدث؟؟ هل يبكي (بابا)؟؟ هي لم ترَه يبكي قبل الآن.. هل يبكي (بابا) مثلها هي و(محمد)؟ ولكن لم (يشخط) فيه أحد.. تراه لم يبكِ إذن؟؟ هل (زعّله) ذلك الطبيب؟؟؟

انزلقت من فوق السرير العالي ببطءٍ حتى لامست قدماها الدقيقتان الأرض الباردة ثم هرعت على والدها حافية وهي ترفل في (الجاون) الأخضر الواسع.. احتضنت ساقيه الطويلتين للحظات ثم رفعت رأسها نحوه وهتفت بحنوٍ شديد:

معلش يا بابا.. مش تزعل..

وحولت نظراتها النارية للطبيب وزعقت بصوت تخنقه الدموع:

دكتور وِحِش!

oleiman.com

obeikan.com

obeikan.com

عندما تمرض الفراشات

obeikan.com

استقرت كرة اللهب الصفراء هناك في كبد السماء تبخّ وهجها اللافح على كل شيء، واكتست صفحة الأفق بلون أزرق باهت بينما طفت سحابات هزيلة في محاولة بائسة لتكسر من حدة الحرارة قليلًا.. وعلى الأرض هرولت هبّات من الهواء الساخن فوق الرمال عابثة بكرات من الأعشاب الجافة وأوراق الشجر النافقة..

وبين الصخور وكثبان الرمال تناثرت أعداد قليلة من نبتات الصبار الصارمة تعلوها زهور حمراء كبيرة.. زهور باعدت مابين أوراقها سامحة للفراشات بالعبث فيها ولعق رحيق العشق الثمين.. عشرات الفراشات يتناوبون طيلة النهار على زهور حبلى بحبوب اللقاح ليحملوا بويضاتها على أرجلهم ويدسوها في زهورٍ أخرى بعيدة.. حفلات مجون بريّة بين الفراشات وبغايا الزهور تحدث علانية بلا رقيب أو حسيب حتى في هذا القيظ الخانق حيث تكاد رائحة العرق أن تفوح من إبط الفراشات ومياسم الزهور!

رفع ناظريه إلى السماء الحانقة مخبئًا عينيه براحة كفه اليمنى.. عرقه الغزير يبلل ظهره وينفذ داخل حذائه الجلدي فيصدر أصواتًا مزعجة مع كل خطوة يمشيها على الرمال الساخنة.. ما فائدة الحذاء اللعين؟؟ هكذا فكر وفي لحظة خلعه وحمله في يديه ومضى يغوص بقدميه العاريتين بين ذرات الرمال الملتهبة.. مع كل خطوة يمشيها كان يغوص أكثر وأكثر.. كبَّل قدميه التعب وجفف الظمأ الدماء من عروقه.. فهوى جالسًا يلهث على الأرض الحارّة يتسمع ضربات قلبه الحثيثة..

لمح بطرف عينيه فراشةً تبحر في الهواء فوق رأسه مختالة بجناحيها الملونتين.. أي فراشات تطير هنا في هذا القفر؟؟ لا شيء سوى الصبار وأزهار الصبار.. حتى الصبار له زبائنه وعاشقيه!

يا للطبيعة الصارمة هكذا تحمي نسلها من البوار.. حتى هنا تفتح مواخيرها حيث كل شيء مباح.. هكذا حدثته نفسه وهو يدني نظراته الى الأسفل..

فك الباقي من أزرار قميصه ثم خلعه بالكامل ووضعه فوق رأسه كاشفًا عن جذع أسمر نحيف غطاه العرق..

السفر مش هو الحل يا فالح.. اتعالج الأول وبعدين سافر..

قالتها وهي تبتسم واضعةً يديها على وسطها الضيق وجسدها البضّ يتمايل ساخرًا منه ومن علّته..

تزوجا منذ أشهر قليلة بعد أن تعارفا في العمل.. فاز بأجمل امرأة في الشركة تمامًا كما كان يتمنى.. فهو يريد الأفضل لأنه الأفضل! وهي فازت برجلٍ حسن المظهر وابن حلال سيلبي كل طلباتها..

كل ليلة عندما تلتقي نظراتهما المشتاقة تبدأ أحلام الشباب الدافق تتراقص في الحدقات.. وأنفاس أول الليل المتحمسة تشحذ الهمم المشتعلة أساسًا.. لكن تحت الجلد تقبع رغبة مسجونة تبحث لاهثة عن سبيل للفكاك.. قبضات الأكف الساخنة ونظرات العيون المتوجسة تفضح نفسها حتى في وسط الظلام الدامس.. وينتهي الأمر دومًا بنشوة مذبوحة تفور في دمائه ثم تتبخر بغير رجعة فيرتمي على ظهره مستسلمًا لاهثًا والعرق يغطيه.. يعبث بيديه المرتعشتين جانب الفراش ليبحث عن علبة السجائر والولاعة.. وعلى ضياء اللهب الأصفر المنكسر تبدو هي متكومة بجواره ونظراتها الجائعة تملأ وجهها كله..

لم يستطع أن يتحمل عجزه وسخريتها أكثر من ذلك فسافر تاركًا لها الحبل على الغارب.. لقد عرض عليها الطلاق كي ترحل عنه إلى حياة أرحب، ولكنها رفضت لأنها تحبه.. هكذا همست في أذنيه رغم أنه سمعها مرة تقول لصديقة لها عبر الهاتف أنها تريد حرية أكثر؛ فالمطلقة تلكزها نظرات الظن والريبة مع كل خطوة تخطوها أما المتزوجة فتفعل ما تريد؛ فهي العفيفة المصون! هل حقًا تخونه أم هكذا قالت دون قصد؟

تركها وسافر، ولكنه لم يتحمل بُعده عنها أكثر من شهرين فعاد إلى الوطن راكبًا البحر لأنه لا يملك ثمن الطائرة.. تقاذفته أمواج اليم العابسة وكأنها تكره الراجعين.. ثم استقل بعدها السيارة (البيجو) البيضاء المعتادة من الميناء إلى مدينته.. القيظ الشديد يلهب الأسفلت الذي يكوي بدوره مطاط الإطارات المهترئة.. دخان أزرق يغيب في جوف السائق المنتشي بأغانٍ صاخبة وعيناه لا تكادان تميزان حواف الطريق المغطى بالرمال الهائجة.. أخيرًا انفجر الإطار صارخًا وانزلقت السيارة على جنبها ولفّت في الهواء ودارت على الأرض ثم استقرت مقلوبة في الرمال حيث لا أحد..

بين أجساد الموتى والمتأوهين جرّ نفسه خارجًا من الصفيح المحترق ولم يصبه خدش واحد.. عاد مترنحًا إلى الطريق الأسود الملتف بين التلال الصفراء الحارة.. ابتلع لعابه النزير وأكمل المشوار وهو يستشعر بعض البول في مثانته.. ربما يحتاجه لاحقًا إذا ما نال منه الظمأ! هكذا فكر وتقلّصت معدته من قبح الفكرة..

بغتة اختفى الطريق اللعين أسفل الصحراء.. لا يدري إلى أين كان يقوده هذا الطريق ولكنه في النهاية كان شيئًا يهتدي به.. أما الآن فقد ردمته الرمال.. لفَّ رأسه هنا وهناك علّه يرى بدايةً ما يمسك في تلابيبها.

ليته بقي معها ولم يسافر.. ليته تحمل سخريتها أكثر..

نهض مجددًا ليكمل رحلة البحث المحمومة عن طريق العودة أو الذهاب.. فهو لا يدري الاتجاهات.. كل ما يريده هو أن يرى الطريق مرة أخرى.. أي طريق!

خطرت له فكرة غريبة ليس لها سند من المنطق أو العقل.. لم لا يتبع أسراب الفراشات ويرى إلى أين يقوده هذا؟ إلى بستان ما أو إلى عين ماء أو حتى إلى كهف يأويه ويحميه من تلك الشمس المسعورة!

دقق النظر وسط الصفار المغدق عليه من كل جانب.. انعاكسات عشرات الشموس من حبيبات الرمل على عينيه يحرق أهدابه.. جفاف حلقه يمزقه.. تمامًا كجفاف رجولته التي خذلته كثيرًا وهي سبب ما هو فيه الآن..

رأى هناك فراشتين متخمتين بالرحيق وحبوب اللقاح تترنحان فوق الهواء الساخن.. ببطءٍ مشي تجاههما وتوقف منتظرًا أي طريق ستسلكان.. بقيتا تتقافزان فوق الهواء وكأنهما ترتقيان درجات سلّم خفيٍّ مطمورٍ في أبعاد لا تدركها عيناه المرهقتان.. اتجهتا يمينًا عدة خطوات فمشى خلفهما.. ثم دارتا يسارًا فدار خلفهما.. أمضى دقائق طوال في تلك المطاردة المملة أدرك بعدها أنه يعبث ليس إلا؛ فتوقف مكانه وأطرق برأسه.. عادت الفراشتان تحومان ناحيته.. بدا وكأنهما لاحظتا وجوده بغتةً أثناء لهوهما.. طافتا حوله مرات ومرات.. لم يشأ أن يخيفهما فظل ساكنًا مكانه كنبتات الصبّار المتناثرة من حوله.. اقتربت الفراشتان منه أكثر وأكثر حتى هُيأ له أن هواء جناحيهما يضرب خديه المغطيين بالعرق.

ما زالت صورتها تملأ عقله ووجدانه.. لابد وأنها ترعى الآن بشهية في الغيطان المجاورة !

لابد أن يعود.. لابد وأن يرجع إلى أحضانها حتى وإن كانت قاسية ومستعصية عليه..

حطت الفراشتان على جذعه العاري.. واحدة وقفت على كتفه الأيمن والأخرى على الأيسر.. لم يتحرك ولم تتحركان.. فقط كانتا ترفرفان بجناحيهما من وقتٍ لآخر..

شعر وكأنهما تلعقانه فابتسم وأغلق عينيه !

القيظ يضرب ظهره بألف سوط ملتهب والفراشتان الشبقتان ما زالتا تتحسسانه بحثًا عن حبوب اللقاح.. فمدَّ ببطء ذراعيه عن آخرهما .. .. علّه يجذب مزيدًا من الفراشات..!!

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

1988

obeikan.com

مترو (مصر الجديدة) يحملني راجعًا إلى ميدان (العباسية) وأنا أتأرجح يمينًا ويسارًا والهواء البارد يدغدغ وجهي.. كنت في طريق عودتي إلى المنزل في حي (المنيل) الجميل بعد زيارة عائلية دافئة..

كنت أجلس على مقعدٍ جلدي (نبيتي) اللون ومن حولي عدد قليل من الراكبين.. الكل صامت.. إما غافٍ أو شارد أو يتابع الآخرين في فضول فاتر.. النافذة النصف مغلقة بجواري تكشف من ورائها القاهرة الساحرة وهي مكتسية بالسواد..

كنا في أواخر الثمانينيات حيث ما زال العالم يحتفظ بقليل من الطيبة والإنسانية.. حيث كنا في أمان من غزو الهواتف المحمولة والحواسب المحمولة والمصائب المحمولة.. حيث كنا نفتح عيوننا لنرى بعضنا ونغمضها فنحلم.. كنا مازلنا نحلم.. !

الساعة تقارب التاسعة مساءً والبرودة تلف المكان داخل المترو وخارجه؛ فنحن في أواخر شهر (أكتوبر).. ولكن بعكس الجميع كنت لا أشعر بتلك البرودة بل على العكس كانت الحرارة تدبّ في أوصالي كلها والعرق يسيل متحفزًا على عمودي الفقري وأنا أرقب كل من حولي بمنتهى الحذر والحيطة وأصابعي متشابكة فوق حقيبة قماشية بنية اللون تحوي بداخلها شيئا خطيرًا جدًا وثمينًا للغاية!

كنت لتوّي في زيارة لابن خالتي المهاجر إلى (بريطانيا) وكان آتيًا في زيارة قصيرة ل(القاهرة) لاستكمال بعض الأوراق الحكومية.. وذهبت لكي أراه..

كان طبيبًا.. المسكين وضع علامة (صح) أمام كلية الطب جامعة (عين شمس) في صحيفة اختيار رغبات الكليات بعد نجاحه الباهر في الثانوية العامة.. وبعد مرور ستة أعوام أفاق من هول كابوس سنوات الدراسة الثقيلة اللزجة على كابوس الواقع اللعين حيث الإرهاق والسهر والتوتر هم أقرب أصدقائك.

الناس من حوله يقولون (الدكتور راح.. الدكتور جه) وهم لا يدرون أن المسكين ليس في جيبه إلا النذر اليسير.. ففي بلدنا المصون إن لم تكن (ابن ناس) و(معاك فلوس) فأنت هالك لا محالة!

وكان ابن خالتي ابن ناس طبعًا ولكنه لم يركن كثيرًا إلى مساعدات والديه خصوصًا وأنه أكيد أحسَّ أن تلك المساعدات ستستمر طويلًا وسيكون الإقلاع عنها في منتهى الصعوبة..

لم يحتمل الوضع فجمع أغراضه اليسيرة وأحلامه الكثيرة وركب الطائرة إلى بلاد الضباب..

في ذلك الزمن الجميل كانت الأمور سهلة.. إن كنت تريد السفر إلى أي مكان فتفضل سافر.. بدون إجراءات معقدة وأسئلة لطيفة من نوعية ما هو عيد ميلاد (جوز خالتك) وما هو اسم ناظر مدرستك الابتدائية وما هي وظيفة جدّك السابع؟

المهم.. ذهبت لزيارته وأنا في منتهى الفخر ولم لا وقد التحقت لتوّي أنا الآخر بكلية الطب.. !

بعد الأحضان والدموع واللكزات والنطحات وكل أشكال الترحاب الفلكلورية المعتادة في تراثنا العنيف ضمتنا شرفة منزلهم الرحيبة في حي (مصر الجديدة) ونحن نحتسي القهوة الساخنة في الهواء المنعش..

إيه اللي رماك الرمية السودة دي؟؟؟

كان هذا رد فعله المرحب الدافئ بنبأ دخولي كلية الطب.. حاول بعدها جاهدًا أن يثنيني عن تلك الخطوة الحمقاء.. وأن التحويل متاح لأي كلية أخرى.. وأنه لا ضير في أن تضيع سنة من عمري بدلًا من أن يضيع عمري كله!!

يمين شمال فوق تحت و(على جنب) وبكل الحركات حاول المسكين أن يغيّر رأيي ويقنعني بالدراسة في كلية أخرى.. وأنا مصمم وعلى كلمة واحدة (ماخدوش يا بابا ماخدوش يا بابا)!

وحينما أحس المسكين أنني (البعيد غبي) قام متثاقلًا وكله أسى واختفى داخل المنزل للحظات قبل أن يعود حاملًا معه حقيبة قماشية بها رفات أحدهم وألقاها في حجري وهو يتمتم:

خد.. الهيكل العظمي.. هتحتاجة في أول سنتين

ظللت أنظر مأخوذًا ومنبهرًا إلى الحقيبة وقد أدركت مدى سمو وعظمة وخطورة تلك المهنة الساحرة..

أما ابن خالتي المصدوم فكان يجول بنظره حيث كنت أجلس على المقعد باحثًا بإصرار عن آثار الذيل الذي لابد وأنه طلع لي من فرط الغباء المستفحل.

ما زال المترو يهزني وأنا قابض على الحقيبة في توجُّس أن يرى أحدهم جزءًا من عظام المرحوم من بين طيات الحقيبة القماشية..

ما ذنب المغفور له في أن تتناقل الأيادي رفاته و(تشخبط) عليها بالأقلام وأن تتحول جمجمته إلى (مقلمة) فوق مكتب شخصٍ ما غير مستقر نفسيًّا..!؟

عمومًا.. الله يرحمه اتفسح كتير.. من (مصر الجديدة) إلى (مصر القديمة) والله أعلم أين كان قبلها وإلى أين سيغادر بعدها..

ومرت سنوات.. وبعد ان انتهيت من دراستي في الكلية وبعد أن أتممت درجتي الماجستير والزمالة ركبت أول طائرة الى الخليج لأبدأ رحلة الانتحار البطيء.. حيث لا طعم للأشياء.. حيث البعد عن الأحباب.. حيث يبيَضّ شعرك وتصاب بارتفاع الضغط وحصاوي الكلى وآلام الظهر وكل أمراض

الشيخوخة في ظرف سنتين فقط.. حيث يحسدك الناس ليل نهار بعد كل هذا على (النغنغة) التي (تتمرمغ) فيها.. يحسدونك على الجواري والقصور والسيارات الفارهة!

ومع مرور الأيام اكتسبت خبرة تحمُّل السهر والقلق والتوتر.. واكتشفت أن ممارسة الطب في نهاية الأمر لم تكن بشعة جدًّا كما أخبرني ابن خالتي.. كانت فقط بشعة!

obeikan.com

جميلة

obeikan.com

obeikan.com

كان المقهى من حوله يموج بالضوضاء وبالبشر..

سحب كرسيًّا ثم ألقى بجسده فوقه وصفّق مناديًا الساقي..

جال بناظريه في الوجوه من حوله وتمنى لو أن أحدًا من أصدقائه القدامى أطلَّ عليه الآن ليشكوَ إليه همَّه ويفتح أمامه جِراح السنين..

ولكن للأسف.. كانت ذكرياته وآلامه هم من يشاطرونه جلسته..

عقد ذراعيه فوق صدره وضمَّ نفسه إلى نفسه ثم أغمض عينيه وغاب في أفكاره المضطربة..

اليوم عندما أخبرته السكرتيرة أن هناك فتاةً تطلب لقاءه لفت نظره اسم أبيها.. كان مشابهًا لاسم الرجل الذي دمَّر حياته وسلب منه أعز أحلامه قبل عشرين عامًا.. وتزوج من(جميلة)!

لم يعِر الأمر اهتمامًا زائدًا وسمح لها بالدخول.. فربما يكون مخطئًا!

ودخلت عليه فتاة رائعة الحسن.. لحظتها فتح عينيه عن آخرهما وارتعد جسده كله..!

كانت نسخة مطابقة لأمها.. .كانت (جميلة) تقف أمامه تبتسم!

لقد قفز فجأة إلى أعماق الزمن راجعًا للخلف حيث ترك (جميلة) آخر مرة.. كانت بنفس العمر.. كانت ترتدي فستانًا أبيض رقيقًا.. كانت تبكي لأن عرسها غدًا وأنها لن تراه مجددًا.. اعتصر الحنق والحزن قلبه وقتها وبكى كالأطفال.. إنه لا يريدها أن ترحل.. لا يقوى على أن يتركها لرجل غيره.. إنها ملكه.. له هو وحده..

صباح الخير!

أفاق من ذهوله على صوت رقيق كحبات الندى تغازل أوراق الشجر.. صوت مازالت أذناه تحفظ تقاسيمه عن ظهر قلب رغم عجاف السنين الطوال.. صوت أعاده للواقع حيث الفتاة واقفة مكانها تبتسم..!

ظلَّ مشدوهًا للحظات قبل أن ينهض مرتبكًا ملقيًا على الأرض كل ما يأتي في طريقه حتى وصل إليها..

غير معقول.. حتى ما ترتديه يبدو مشابهًا لما ارتدته أمها ساعة آخر لقاء!!

احتضن كفها في كفيه.. بالأحرى كاد يأخذها هي كلها بين ذراعيه ويضمها إليه بكل حنان واشتياق وينخرط في بكاء طويل.. ولم لا؟؟ وهو لم يرَها منذ عشرين عامًا..!!

رأى في عينيها دهشة من فرط حرارة اللقاء.. كيف يُفهمها؟؟

كيف يخبرها أنها فتحت فوق رأسه صهريج ذكرياتٍ ظلت حبيسةً داخل رأسه أعوامًا طويلة؟؟

كيف يخبرها أنه يرى أمامه حُبَّ حياته وهي ما زالت شابة يافعة وكأنه تركها بالأمس؟؟

كيف يخبرها أنها أذابت في لحظات، عشرين عامًا من عمره؟؟

دعاها للجلوس على الأريكة المجاورة لمكتبه.. بدأت الفتاة بالحديث ولم يعِ كلمة واحدة مما كانت تقول..!!

كانت تتحدث وهو يغوص في عينيها.. كانت تتحدث وهو يذوب في شفتيها.. كانت تتحدث وهو يتوه في دروب وجهها الجميل..

يا إلهي الرحيم.. .إنها (جميلة)!!

صمتت الفتاة فجأة وأطرقت للحظة وعلى ملامحها علامات الحنق ثم نهضت واقفة.. أربكته المفاجأة فنهض مسرعًا بدوره وتمتم مرتبكًا:

- خير..؟ ماذا حدث؟

لوت شفتيها ورفعت كتفيها وقالت:

- الحقيقة أنا لا أدري ما يحدث هنا.. منذ أن جئت وأنت تتصرف بغرابة.. أسلوب نظراتك وطريقة سلامك.. هل استمعت لكلمةٍ واحدةٍ مما كنت أقولها الآن؟؟

أطرق برأسه صامتًا معتذرًا فأكملت: أنا توقعت ذلك.. لذا أعتقد أنه يجب عليَّ الانصراف..

صاح ملتاعًا وهو يشيح بكفيه: لا.. لا.. !

تعجبت الفتاة وتمتمت: ولم لا؟

حلَّ زر قميصه العلوي وأرخى ربطة عنقه قليلًا وقال لاهثًا:

حسنًا سأشرح لك كل شيء.. فقط أرجوكِ لا تذهبي.. تفضّلي بالجلوس..

بدت الفتاة مرتابة بعض الشيء، ولكنها جلست بعد تردُّد قصير أمام نظراته المتوسلة وجلس هو على المقعد المجاور وابتسم قائلًا:

سامحيني.. أعيدي عليَّ ما كنت تقولينه قبل دقائق؟؟

لم تتمالك نفسها هي الأخرى من الابتسام وقالت:

أنا اسمي (زهرة).. أدرس في كلية الهندسة.. وبما أن هذا أكبر مكتب هندسي بالمدينة فقد أتيت للتدريب هنا خلال الصيف المقبل، ولكن بصراحة أعتقد أنني مضطرة للانصراف الآن..

صبرًا يا ابنتي.. أرجوكِ سأشرح لك سبب تصرفي المريب هذا..

ضحكت ضحكة قصيرة وعقبت:

لا أريد أن أبدو كفتاةٍ لعوب، ولكن لفظة ابنتي هذه لا تليق عليك.. أنت لست كبيرًا بهذه الدرجة..

ضحك قائلًا: أشكرك على المجاملة الرقيقة، ولكن أرجو أن تستمعي لقصتي لدقائق قليلة ثم تقررين بعدها..؟

زمّت (زهرة) شفتيها ثم قالت وهي تهز رأسها: ولِم لا.. الحق أقول.. الفضول يكاد يقتلني!

تنهَّد ونهض من فوق كرسيه.. ذهب إلى مكتبه وفتح أحد الأدراج والتقط إطارًا مستطيلًا فضيّ اللون بداخله صورة ما وعاد إلى مقعده ووضع الصورة على الطاولة بينهما مقلوبة على وجهها..

وبدأ الرجل الحديث:

منذ سنوات طويلة كنت أدرس في كلية الهندسة مثلك.. في العام الأول قابلت فتاة ساحرة.. ووقعنا في الحب حالما التقت نظراتنا لأول مرة.. كنا شبابًا يملؤنا الأمل وتغمرنا الأحلام البراقة.. مرت علينا أعوام الدراسة وكل يوم وكل ساعة وكل دقيقة كنا نحب بعضنا أكثر وأكثر..

مدّ يده المرتعشة والتقط كأسًا للمياه تجرع منها ثم أعادها وأكمل:

تخرجنا.. وباتت لقاءاتنا أبعد عمّا قبل.. في ذلك الزمن السعيد كان اللقاء دومًا وجهًا لوجه.. ولم نكن نمتلك عالمًا افتراضيًا كالذي تملكونه الآن.. كنت أراها مرة أو مرتين بالأسبوع.. اتفقنا على الزواج وذهبت لوالدها ولكنه رفضني وكان الرفض صادمًا لي.. فقد تبين أن الوالد قد أعطى وعدًا لأخيه الراحل بأن تكون البنت لابن عمها.. حاولتُ ونضالتُ لأثنيه عن رأيه ولكنه لم يرضخ.. وهي كذلك فعلت المستحيل حتى أنها وسَّطت بعض الأقارب لكن الأب أصرَّ على الرفض.

و ماذا فعلت أنت.. هل استسلمت؟

مطلقًا.. لقد ذهبت لأبعد ما يكون.. ذهبت لابن عمها.. العريس المنتظر شخصيًا!

قالت مشدوهة: ماذا؟؟ ذهبت لتقابل غريمك وجهًا لوجه؟

أجل والغريب أنه كان شخصًا لطيفًا.. أخبرني أنه يحترم مشاعري، ولكن تلك هي رغبة والده المتوفي وأنه يحب ابنة عمه وسوف يسعدها.. ثم حذَّرني وهو يقودني لباب الخروج، وبمنتهى الأدب من التمادي أكثر من هذا لأن هذه سمعة عائلات..

و ماذا حدث بعدها؟؟

لا شيء.. بعد شهور من النضال غير المجدي تزوجت هي.. وبقيت أنا وحيدًا.. أتابع أخبارها عن بُعد ولم أسمح لنفسي أن أتطفل عليها مرة اخرى.. وهي الآن سيدة سعيدة..

تنحنحت وقالت مبتسمة:- هذا يذكرني بالأفلام الأبيض والأسود.. وطبعًا ستقول أني أنا ابنتها!

ضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع وأشار لها: أرجوك.. انظري إلى الصورة وأخبريني رأيك!

مدَّت (زهرة)يدها ورفعت الإطار الفضي ونظرت إلى الصورة.. قضّبت حاجبيها لوهلة وامتقع وجهها ثم رفعت نظرة مشدوهة إليه وعادت تشير إلى الصورة وتمتمت بصوت مبحوح:

إنها هي.. إنها (جميلة).. إنها أمي بالفعل!

أحيانًا الأفلام والروايات تكون صورة حقيقية لحياتنا..

أنا أشبهها كثيرًا.. كثيرون قالوا لي هذا.. .ألهذا بدوت مرتبكًا حين رأيتني ؟

بالفعل.. ومازلت لا أصدق عينيّ..!

أنت الآن صاحب مهندس ناجح ومشهور.. هل وقعت في حب امرأة غيرها؟

أطرق برأسه وتمتم: لم أستطع.. لم أستطع خيانتها.. حاولت وفشلت

لم تتزوج.. ليس عندك أولاد.. ولهذا ناديتني ابنتي.. !

نعم..

طالت بينهما لحظات الصمت.. وأخيرًا تنهدت الفتاة بعمق وقالت:

لا أستطيع أن أصف مشاعري الآن.. والدي إنسان رائع ولم نرَ منه إلا كل خير.. وأمي حقيقةً تحبه وتحترمه كثيرًا.. لم يُغضبها أو يُهينها يومًا..

هذا أمر يسعدني.. أنا لا ألومها على ما حدث بيننا في الماضي.. إنها لم تتخلَّ عني، ولكن الظروف كانت أقوى منا..

سيدي.. كلاكما كنتما رائعين وحاربتما قدر المستطاع.. !

مسح وجهه بكفيه ليداري دمعة فرت هاربة وهتف مبتسمًا:

والآن.. هل ستبخلين على ذلك الرجل المسكين أن يراك بضعة أيام بالأسبوع؟؟ أعدك أنا لن أبعث معك برسائل لوالدتك، ولن أتكلم معكِ عن الماضي أبدًا.. أعدك أن أكون مديرك فقط.. أتوسل إليك.. لا تذهبي!

صمتت الفتاة للحظة ثم قالت:

أرجوك أعطني فرصة للتفكير.. أنا لا أود ان أفعل شيئًا يزعج أبي أو يجرح كبرياءه.. ولا أريد أن أكسر خاطر أمي كذلك.. !

ساد بينهما صمت طويل.. ثم نهضت (زهرة) واتجهت لباب الخروج فنهض الرجل مسرعًا ولحق بها قبل أن تغادر:

لحظة يا ابنتي.. .لقد قلت إنك لا تريدين كسر خاطر أمك.. لا أفهم معنى ذلك؟؟

ابتسمت وربتت على كتفه وقالت وهي تهم بالانصراف:

من تتخيل أعطاني عنوان هذا المكتب.. ومن أصرّ أن أرتدي هكذا في هذه المقابلة؟ ومن طلب مني أن أكون لطيفة معك لآخر مدى؟؟

وانسلت من أمامه كالنسمة، وظل هو مذهولًا متسمرًا مكانه لدقائق طويلة من وقع المفاجأة..

وبعد أن لملم شتات روحه الممزقة هرب مسرعًا إلى المقهى علّه يجد السلوى مع أصدقاء الماضي.. عله يجد من يحكي له آلامه.. عله يجد كتفًا دافئة يلقي فوقها رأسه وينخرط في بكاء طويل.. ولكنه لم يجد غير الوحدة تلاحقه.. لم يجد غير وجوه غريبة لا تأبه بما يثور في قلبه من مشاعر دامية وأحلام مبتورة..

أراح رأسه على الجدار خلفه ومنع دمعة من الفرار من بين جفنيه المغلقين..

ولكن ابتسامة خجلى مشرقة نبتت بغتة فوق شفتيه وهو يتذكر كلمات ابنتها قبل أن تغادر مكتبه..

فما زال له مكان في قلب (جميلة)!!

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

القُـنبلة

obeikan.com

كان يعرف أنه آثم..

ما يفعله حرام وسيلقيه في جهنم..

كان يعرف.. !

كان يدرك أن كل ذنب ارتكبه سيكبّل قدميه يوم الحساب وسيجره على قعر الجحيم حيث ألسنة اللهب الأسود هنا وهناك.. حيث الوهج يشوي صفحة وجهه وأصوات الصراخ والنحيب والسباب بكل لغات البشر يسمعها من حوله والظلام دامس والهواء ساخن وثقيل..

همهمات الزبانيه من حوله وعويل الشياطين وباقي المخلوقات اللزجة وهي تحترق وتتوسل الرحمة والغفران....

كان يعرف أنه سيكون وسط كل هذا الخراب..

كان يعرف أن كل مال نهبه سيلقيه هناك

كل سبّة لفظها ستلقيه هناك

كل نظرة حرام اقترفها ستلقيه هناك

كل صلاة أضاعها ستلقيه هناك

وكل لحظة أغضب فيها أبويه ستلقيه هناك..

كان يعرف أنه آثم..

كان يعرف ولكنه كان كالمسحور.. !

كان يعرف أنه في يوم ستبيضّ عيناه ويدبّ الصمت في أذنيه وتزول قواه..

ستبتلعه الدوامة الغامضة كما ابتلعت غيره..

سيشعر بجسده يهتز وهم يحملونه على قبره!

obeikan.com

سيسمع بكاء الأحباب من بعيد وسيسمع صوت المعاول تغلق عليه مرقده الأخير..

سيتركونه عاريًا.. وحيدًا.. يواجه بمفرده عوالم أخرى..

يرى مشاهد أخرى..

يسمع أصواتًا أخرى..

يقابل مخلوقات أخرى..

يعيش قوانين أخرى..

عندها سيتمنى العودة ليخبر الجميع الحقيقة..

وقتها سيقول أشياءً أخرى ويسمع أشياءً أخرى ويفعل أشياءً أخرى..

ولكن لا عودة.. فهذه هي قوانين اللعبة!

افعل ما شئت وقتما شئت حيثما شئت.. ولكن عندما ينتهي وقتك.. عندما ينتهي دورك لا توجد حيوات أخرى..

ولا فرص ثانية.. إنها دورتك الوحيدة فاستعملها كما تحب!

لقد تحمَّل جدنا الأول ولسبب ما (الأمانة)..

كان من الحكمة والفطنة أن يرفض بعدما رأي عماليق المخلوقات تخضع راكعة رافضة مشفقة أن تحملها.. وها نحن نعاني من بعدها ولشد ما عانينا يا جدي..

هذه (قنبلة).. احملها فوق كتفيك وسر بها.. هل تنفجر؟؟ متى ستنفجر؟؟ أين ستنفجر؟؟

لا أحد يعرف!

فقط احملها وسر.. في المتعرجات وفوق التلال وتحت الأمطار..

شفرة إبطال القنبلة موجودة ولكن قليلين هم من يعرفون كيفية الحصول عليها..

قليلون من نجوا من أذاها.. .وكثيرون من حوَّلتهم إلى أشلاء!

قنبلة اسمها عقلك وإرادتك الحرة!

.. ..

لا يدري كم من الوقت طار في الهواء حتى جالت في رأسه كل هذه الأفكار الكثيرة المتشابكة..

ولكنه حين ارتطم بالأرض عرف أنه ارتفع كثيرًا..

كان (الأسفلت) ساخنًا صلبًا جافًا..

لطالما مشى عليه، ولكنه لم يجرب أبدًا أن يعرف مذاقه..

الآن فقط عرفه جيدًا!

طعم الدماء المالحة في فمه والشارع الساخن ينفخ القيظ في وجهه..

لم يشعر بلحظة اصطدام السيارة به.. كل ما سمعه كان صوت مكابحها تصرخ كالمسعورة من خلفه وهو يعبر طريقه كالمعتاد على عمله..

وبعدها.. .ها هو ممدد على الطريق بلا حراك..

صوت دبيب الأقدام وهي تهرول تجاهه..

صوت أنثوي يصرخ ملتاعًا من بعيد ورجل يصيح: حد أخد رقمها.. ؟

الرؤية كانت غير واضحة، ولكن صوت نبضاته يدوي في أذنيه.. إذًا هو ما يزال حيًا..

اللعبة ما زالت قائمة.. ! وفرصته ما زالت في يديه..

المارة يحملونه ويجلسونه على حافة الرصيف..

أحدهم ألقى على وجهه بعض الماء..

فتح عينيه وكأنه أول مرة يفعلها.. وكأنه يولد من رحم أمه من جديد..

-انت كويس؟؟ ابن ال(..) كسر الإشارة وهرب.. الحمد لله جت سليمة.. !

رفع عينيه على السماء.. إنها ما زالت زرقاء..

عظامه تؤلمه قليلًا.. أراحوه على مقعد.. ربتوا على كتفيه وانصرف الجميع..

سيل السيارات بدأ يفيض من جديد أمامه..

والمارة ينسلون من كل حدب وصوب..

ابتسم منهكًا..

ورفع عينيه مجددًا إلى السماء في امتنانٍ عميق..

وترقرقت في عينيه دمعة ندم..

فقد كادت القنبلة.. أن تنفجر!!

obeikan.com

obeikan.com

خطيئة

obeikan.com

سيطرت عليه فكرة طاغية ملحّة!

كلنا دائمًا نخطئ.. لا يوجد إنسان عاش على ظهر الأرض إلا وقد أخطأ..

حتى آدم أبو البشر أخطأ وهو في قلب الجنة.. !

الخطيئة ليست شيئًا غريبًا أو منفّرًا بقدر ماهي طبيعة إنسانية التخلي عنها يعد مرضًا أو شذوذًا..

ابتلع ما وجد من لعابه وشعر بغصةٍ في حلقه كأنما يبتلع كرةً من صبّار مُرّ..

فتح عينيه قدر استطاعته ليستوعب هذا القدر من الظلمة المطبقة على المكان من حوله..

هناك فراش وهي ترقد عليه.. غارقة في سبات عميق..

بصيص الضوء الساقط عليها من فرجة النافذة يظهر ملامح وجهها الفاتن وتضاريس جسدها المثير..

لمح انتفاخًا مكورًا في بطنها.. شعر برعدة تجتاحه فأحكم قبضته المرتعشة على مقبض السكين الذي يكاد يلتمع نصله في الظلام..

تقدم بحذر تجاه الفراش وهو مازال يفكر في تلك الليلة الملعونة..

منذ شهور خلت وبعد أسابيع طويلة مملوؤة بالآلام والعقاقير وبرودة المستشفيات الصارمة.. .ماتت ابنته الصغيرة..

كانت اللطمة قاسية.. كان يأمل في نجاتها من مرضها العضال في أية لحظة.. رؤيتها تذوي وتذبل أمامه يومًا بعد يوم وأسبوعًا تلو الآخر وهو بلا حولٍ ولا قوة كان يمزقه بل كان يفتته في كل لحظة..

بعد وفاتها بليلتين كان الحزن قد نال منه ما نال.. كان يترنح كالسكارى.. لا يفقه شيئًا مما يرى أو يسمع.. في تللك الليلة الملعونة استقل سيارته وغاب في دهاليز الطرقات هاربًا من كل شيء.. من الأحزان.. من البكاء.. من التعازي.. من الأخلاق.. من القيم.. كان غاضبًا.. كان بركانًا يود الانفجار..

وكانت هي واقفةً هناك على قارعة الطريق تنتظر (زبونًا).. أدخلها سيارته وانطلقا سويًا..

أفاق الصباح التالي وهي راقدة بجواره.. كان لا يتذكر شيئًا مما جرى بينهما غير أن رائحة الخمر كانت تملأ أنفاسه وآثار أحمر شفاة رخيص يغطي وجهه وصدره.. انسلّ من جوارها وتحامل على نفسه رغم الغثيان والصداع العنيف الذي يرج رأسه رجًّا..

ركب سيارته واتجه إلى منزله حيث الذكريات والوحدة وصدى الضحكات الطفولية.. ودارت به عجلة الحياة ونسي أمر تلك الليلة الحمراء..

فجأة وبعد شهورٍ قليلة عادت تلك المرأة للظهور في حياته..

عرفت طريقه ووصلت إليه.. أخبرته أنها تحمل ابنه في أحشائها وطلبت منه نقودًا كي تحفظ سره أو يتزوجها ويكتب الطفل باسمه..

كيف له أن يتزوج من بائعة هوى وينسب لنفسه طفلًا مجهول الأب؟ كان أمرًا مستحيلًا..

أعطاها النقود واختفت لأيامٍ ثم عادت تطلب منه مجددًا نقودًا كثيرة.. رضخ لها، ولكنها لم تكتفِ أبدًا من ابتزازه وتهديده بفضح أمره أمام زوجته وعائلته.. كانت تدَّعي امتلاكها صورًا وتسجيلات.. حاول أن يشرح لها ظروفه النفسية في تلك الليلة وأنه لم يكن يدري ماذا يفعل ولكنها لم تهتم.. واصلت الضغط عليه أكثر وأكثر.. وأكثر!!

فضيحة كهذه ستكلفه وظيفته وزوجته وأولاده وعائلته ونصف أصدقائه..
فضيحة كهذه ستلقيه معدمًا محطمًا على قارعة الطريق..

لقد أخطأ وكان محطمًا ثملًا.. لكنه لن يترك كل شيء يضيع عبثًا من أجل خطأ واحد مع ساقطة..

سيقتلها.. أو ليس حكم الشرع قتل مثيلاتها؟! سيحقق شرع الله.. .ليس إلا!

فجأة.. تقلّبت في فراشها وقبل أن تفتح عينيها رفع سلاحه وهوى به.. هوى به ألف ألف ميل..

الخطيئة.. لحظة معصية واحدة تولد عمرًا كله ندم وخوف..

بعد عمر نظيف.. غلطة واحدة.. .وانتهى كل شيء!

(سارة ماتت يا نبيل.. ماتت)

تأوهت وفتحت عينيها بذعرٍ ونصل السكين يغوص ويمزق..

زوجته تصرخ.. و تنتحب

شعر بقلبه يضخ دمًا أسود عفنًا..

صوت قرآنٍ حزين.. همهمات المعزّين.. .وشعور الضياع

ما زال السكين يضرب بجنون..

إنه يشعر بكل شيء يتمزق يرتد إليه يصعقه..

ضحكات خليعة وكأس خمرٍ أحمرٍ قان

و.. أفاق..

كان يلهث والعرق يغمره وهي كانت راقدةً في فراشها بلا حراك..

يده ترتعش وهي تحمل سكينًا معوَجًا وبِركة الدماء فوق الفراش تقطر على أرض الغرفة في خرير ثقيلٍ مخيف..

وقف يحملق غير مصدِّق.. لقد قتلها فعلًا.. وقتل من كان يمكن أن يكون طفله!

ذنب مسعور آخر سيطارده للأبد حتى بعد أن يزجّوه في قبره!

ارتد للخلف خطواتٍ قبل أن ينطلق هاربًا..

إلى الردهة.. إلى الدرج.. على الشارع.. إلى الزحام..

إلى أحضان الحياة.. !

obeikan.com

وحكمت المحكمة

obeikan.com

obeikan.com

خالتي.. خالتي.. !

أيوة يا (بطة) أنا جايه..

هرولت تجاه الصوت الواهن.. ثم توقفت مكانها بغتة وهي تحملق مشدوهة وكأن تلك الطاقة الهائلة التي دفعتها لتهرول إلى الحجرة على صوت استغاثة ابنة أختها قد ارتدّت إلى عينيها وتحولت إلى نظرة.. نظرة طويلة عميقة.. نظرة غاصت إلى أعماق الماضي المشؤوم.. نظرة تنتهي بضفائر سوداء وفراشات وشمس ذهبية ومروج خضراء بلا نهاية..

لقد عبث ذاك المشهد أمامها بذكريات طالما تمنت أن تنساها.. !

كانت الفتاة الصغيرة مسجية على الفراش بلا حراك.. فإقتربت منها وجلست الى جوارها وهزتها برفق ثم مالت على صدرها تتسمع أنفاسها الواهنة ودقات قلبها التائهة في تيه جسدها النحيف:

بطة.. .بت يا بطة!

المسكينة مريضة وطريحة الفراش منذ أسابيع.. لقد منعها الطبيب من الذهاب للمدرسة ووصف لها الكثير من العقاقير.. قال إن المرض تمكَّن من قلبها ولابد من دخولها للمستشفى..

ذهبت أمها لقضاء بعد الأمور وتركتها في رعاية خالتها..

طفت بغتة دمعة فوق عينيّ الخالة وبيدٍ مرتجفة مررت أصابعها في شعر (بطة).. وحدقت من خلف زجاج الدموع في صورة متموجة من عالمٍ آخر..

كان شعر(مريم) ابنتها تمامًا مثل شعر(بطة).. وكانت بشرتها تمامًا كبشرة (بطة)..

ولكن(مريم) كانت أرق وأجمل وأذكى.. وأقصر عمرًا

في مثل هذه الأيام منذ عامين اختطفها مرض قبيح من الدنيا..

كانت (مريم) صديقة (بطة) ولكن (مريم) رحلت هناك بعيدًا.. بمفردها..

كانت (مريم) كحمامة بيضاء طيبة.. كانت كثمرة تفاح طازجة.. كانت كموسم ربيع بلا انتهاء..

فجأة انتهى كل شيء وتحولت البراءة والرقة وشقاوة البنات إلى حانوتي وصوان وصورة كبيرة على زاويتها العلوية شريط من القماش الأسود.. ثم خواء يفضي إلى خواء..

كانت اللطمة شديدة.. ترنحت كثيرًا.. انهارت.. فقدت الوعي لأيام..

قال الكثيرون إنها جُنَّت وفقدت عقلها ويجب أن تودَع مصحة نفسية.. ولكن أختها رفضت.. ومع الأيام بدأت تتعافى شيئًا فشيئًا..

كانت دومًا ترى (مريم) في (بطة) ابنة أختها.. وكان هذا يهدئ كثيرًا من روعها..

ولكن (مريم) كانت أرق وأجمل وأذكى..

كيف استطاعت أن تشاهد (بطة) تكبر بدون (مريم).. وكيف تعيش (بطة) بدون (مريم).. ؟

بعد وفاة ابنتها نما لديها ذلك الشعور البغيض هناك عميقًا حيث لا يراه أحد.. شعور لا تستطيع الإفلات منه.. شعور يطاردها كذئبٍ مسعور كلما رأت طفلة في عمر (مريم)..

لو عاشت (مريم) لكانت الآن في الابتدائية..

لو عاشت (مريم) لصارت صبية جميلة يغازلها كل شباب الحي..

لو عاشت (مريم) لأصبحت عروسًا فاتنة..

لو عاشت (مريم) لغدت أمًّا حكيمة..

لو عاشت.. لو عاشت.. لو عاشت!

كفاية كفاية..

صرخت بصوت مكتوم وهي تدفن رأسها في كفيها وتتكور على نفسها بجوار (بطة) وتبدأ في النحيب..

لقد باتت تحقد على كل من له ابنة نجحت أو تزوجت أو أنجبت.. حاولت أن تتخلص من ذلك الشعور البغيض الرابض فوقها.. يخنقها.. يدس أصابعه في مقلتيها.. يسيطر على أنفاسها وخلجاتها وحركاتها..

أدارت وجهها المغطى بالدموع وهي تنتحب ونظرت من خلف خصلات شعرها المنسدلة أمام عينيها إلى (بطة)..

(مريم) كانت أرق وأجمل وأذكى.. !

(بطة) ليست أفضل من (مريم) لتعيش هي وتذهب (مريم) للأبد..

أعادت رأسها بين كفيها وأجهشت بالبكاء وهي لا تصدق أنها تفكر هكذا.. ومع من؟؟ مع ابنة أختها..

ولكن ما تشعر به أقوى منها ومن أختها ومن ابنة أختها.. ما تشعر به لا يعرفه إلا من ذاقه وعرف مرارته..

الحقيقة المخيفة الكامنة أسفل الملابس والجلد واللحم والعظام.. الحقيقة الشيطانية السوداء المنزوية هناك في الظلمات.. حيث نيران الغِل والحسد تلهب روحها المكلومة بلا رحمة..

لم تكن أبدًا شريرة أو حاقدة..

ولكن هذا ليس شرًا.. إنه عدل.. !

العدل..

همست وهي تنظر ل(بطة) بعينيها المختبئتين خلف خصلات الشعر المبللة بالدموع..

كانت الفتاة المريضة تجاهد لتلتقط أنفاسها بوجها الشاحب وجسدها الغارق في العرق..

هل تتظاهر بأنها لم تسمع نداءها وتتركها بمفردها.. ربما تذهب للسوق أو تعود لمنزلها وتغفو قليلًا..

ولكنها تحب (بطة) وتشفق عليها..

ولكنها كانت تحب (مريم) كذلك..

دارت في الغرفة كالمهرة الحبيسة.. كانت تهمس لنفسها بسرعة: مريم.. مريم.. مريم!

كانت تتمزق.. كيف انفلتت كل هذه الأحاسيس هكذا بغتة؟؟ بدأت ترتجف.. هوت على أرض الغرفة بجوار الفراش حيث ترقد (بطة) تناضل من أجل البقاء حية..

لابد أن تنهض حالًا وتهرول إلى أقرب طبيب.. أو ربما تتصل بالإسعاف.. ربما تصرخ وتستغيث.. فقط تفتح فمها وتدفع الهواء إلى الخارج وتصرخ كأقوى ما يكون.. سيهرع الجيران وينقذون (بطة)..

(مريم) كانت أرق وأجمل وأذكى.. !

أنفاس (بطة) صارت خافتة أكثر فأكثر..

صوت (مريم) يملأ أذنيها.. صورتها وهي تلعب.. شجاراتهما اليومية..

(مريم) كانت صديقة (بطة).. طالما نامتا سويًا في نفس الفراش..

تكورت أكثر على نفسها وفتحت عينيها عن آخرهما وهي ترتجف.. بقيت هكذا بلا حراك..

(مريم) تحب (بطة)..

يجب أن تكملا صداقتهما للأبد.. هناك..

حيث الفراشات والشمس الذهبية والمروج الخضراء بلا نهاية..

obeikan.com

obeikan.com

الفراش و الشتاء

obeikan.com

الفراش والشتاء..

إنهما الثنائي الرائع..

إنهما الحلم الجميل..

إنهما المثالية التي طالما سعى إليها البشر..

تململتُ وأنا أتسمّع صوت أنفاسي الرتيب الهادئ..

لم أحس قبل الآن أن جفنيّ بتلك النعومة وذلك الملمس المخملي وهما يحتضنان مقلتيّ الغافيتين..

نزلت أكثر وأكثر تحت الغطاء الدافئ ودقات المنبه الكسول تدغدغ أذني..

"تيك توك.. تيك توك.. تيك توك.. .. .!!"

إنه يوم الإجازة.. حيث تتحدى ضوء الصباح.. حيث تخرج لسانك للشمس.. !

حيث تقول للعصافير التي تزقزق خارج نافذتك الموصدة أنها تعمل وحيدة اليوم وأنك تغرق في الدفء فقط مع أصدقائك القدامى.. الذين فارقتهم منذ أن كنت طفلًا مدللًا وأصبحت لا تراهم إلا نادرًا.. .

(الكسـل والوخـم.. .. والخمـول).. !!

ليومٍ واحدٍ بالأسبوع لا أبدأ صباحي بأناس تشتكي وتتوجع..

هل تدرك مدي النعمة التي أنت فيها إن لم تكن طبيبًا..!!؟

وهل تدرك مدى المأساة في أن تكون طبيبًا..؟؟

هل تدرك ماذا يعني أن كل شخص يرى وجهك يبدأ في الشكوى؟؟ أصدقاء.. أقارب.. سائقو التاكسي.. كل إنسان تقابله يبدأ في التذمر..

هل تتخيل ما شكل هذه الحياة التي كل من فيها حولك يتوجعون؟؟

لا أحد يقابلك و يبتسم.. !!

وحتى إن ابتسم أحدهم للحظة في وجهك فكن على يقين أنه سيطلب مشورة ما.. إما أن ابنه يشكو من إسهال أو ابنته تتبول ليلًا في الفراش أو سكر الدم عند أمه غير منضبط أو هناك علاج ما غير متوافر بالصيدليات وعليك أن توجده.. !

لسبب ما .. أنت قادر على فعل المعجزات.. !!

هل تدرك ماذا يعني أن يكون من حق أي شخص إيقاظك من النوم في أي ساعةٍ من ليلٍ أو نهار لأن أحدًا ما حرارته مرتفعة أو يشتكي ألمًا في قفاه ؟؟

هل تدرك معني أن يتقيأ أمامك الناس دائمًا أحزانهم وأن تصغى وتتحمل وتواسي.. ؟

هل تدرك معنى أن يصبح البول والإسهال والمخاط والصديد مجرد سوائل عادية لا تثير فيك جزعًا أو اشمئزازًا ؟؟ بل وتسأل عن مكوناتها وشكلها ورائحتها وربما تطلب رؤيتها وتمد إصبعك وتعبث بها.. ؟؟ منتهى القرف!!

هل تدرك صعوبة أن تخبر أحدهم أنَّ أباه قد مات؟؟

هل تدرك قسوة أن تخبر زوجين شابين أن ابنهما الأول لن يسعفه قلبه عامًا آخر؟؟

هل تدرك استحالة أن تخبر امرأة أنها لن تكون أمًا ؟؟

هل تعلم كم هو مفزع أن تخبر أحدًا ما أن عنده سرطانًا قابعًا في كبده أو في نخاعه وأن فرصة نجاته هي نسبةٌ مئويةٌ ما؟؟ هل تتخيل مدى بشاعة تحويل حياة إنسان من لحمٍ ودمٍ على رقمٍ بجانبه علامة مئوية..؟؟

هل تعي مدى صعوبة أن لا تخطئ وأن يتعامل معك الناس على أنك لا تخطئ.. رغم أنك مثلهم مجرد بشر!

هل تستطيع أن تعاني كل هذا لأيام وشهور وأعوام..؟؟

تختزن كل هذا التوتر والألم والقلق والدموع في ثنايا نفسك وأن تأكل وتشرب وتضحك وتتكلم وتنام؟؟ وكأنك صُنِعت من صخر أو فولاذ ؟؟

"تيك توك.. تيك تو....."

وفجأة.. شق الصمت صوت نسائي من النوع ال(سوبرانو).. !

" يا مصيبتي يا لهوي.. رُد عليا يا (محسن).. (محسن).. يا عالم.. عايزين دكتور.. دكتووووور.. .!"

توقف قلبي للحظة.. وانفتحت عيناي عن آخرهما.. اللعنة.. ! هل هذا وقته.. ؟؟

وقبل أن أستمع للوصلة الثانية من النواح على (محسن) و ماجرى له.. سحبتُ الوسادة على رأسي وأنا أتلذذ بالصمت البارد يعود يدغدغ أذنيّ من جديد في حنو رقيق..

الإجازة ومهمة كفاح المرض المقدسة قد تركتها.. ولو مؤقتًا لأبطالٍ غيري..

رائع هو الشعور بعدم المسئولية .. الشعور بأنك حُرٌّ بعد سنين طوال من السجن والأغلال.. !!

"تيك توك.. تيك توك.. .تيك توك!!"

ولكن ضميري الملعون أطل برأسه القميء من تحت جفنيّ المسدلة وهو يرمقني بنظرة كلها احتقار..

اللعنة..! زفرت متأففًا ودفعت الوسادة بعيدًا وركلت الغطاء بقدميّ..

نهضت من الفراش وأنا ألعن حظي العاثر وألعن(محسن) في آنٍ واحد..

obeikan.com

obeikan.com

انتحار

obeikan.com

زفر بضيق، طاردًا ما بقى في جوفه من دخان لفافة التبغ قبل أن يغطي فمه وأنفه بقناع طبي ورقي..

دس كفيه الواحد تلو الآخر في قفازين جلديين ضيقين.. زمّ شفتيه للحظة وهو يتطلع إلى الجسد المغطى أمامه على طاولة التشريح.. بدا وكأنه يحسم أمراً ما في نفسه.. بقي هكذا للحظات قبل أن يمد يده بثباتٍ و يزيح الملاءة..

ضغط زر جهاز التسجيل بجانبه.. وبدأ الحديث:

(إمرأة بيضاء.. تبدو في الثلاثينيات من العمر.. الوجه لا يحمل أي كدمات أو سحجات.. الشفتان زرقاوتان.. لا توجد علامات أخرى مميزة..)

أطبق شفتيه وهو يتأملها: الشعر الأسود والأهداب الحادة والأنف الدقيق..

مدَّ كفه ومسح على خدِّها البارد..

كانت امرأة جميلة بلا شك.. لكنها الآن لا تتعدى كونها مجرد دمية من المطاط الأبيض..

ما الذي ألقى بك أيتها المأفونة إلى مكان كهذا..؟ كيف سمحتِ لهم أن يسلبوك حياتك بتلك السهولة ؟

(توجد آثار جروح عميقة عند الرسغين مع تمزق في الشرايين وأوتار عضلات الكفين..)

منذ ساعات كنت تبكين أو تضحكين أو حتى تصرخين.. كنت مفعمة بطاقة الحياة السحرية.. والآن صرتِ تمثالاً خلابًا من الشمع البارد..

(لا توجد آثار كسور أو رضوض في الذراعين أو الساقين..)

تراك أين أنت الآن.. وصلت الجحيم أم ما زلت في طريقك إليه..؟؟ يا لك من شقية! كيف فعلت هذا بنفسك.. كيف؟؟

(أميرة) كانت مثلها.. !

جميلة كورود الصباح.. رقيقة كحبات الندى.. ودافئة كحضن الشمس..

كان يحبها إلى درجة الجنون.. اتفقا على الزواج بعد قصة غرام مشهودة، ولكنها فجأة تغيرت ولم تعد تلك الفتاة التي أحبها.. شجارات وخصام طوال الوقت.. طلبات مستحيلة التنفيذ... منها ومن أمها المتسلطة..

وأخيرًا بعد كثيرٍ من المعاناة والسخرية والتسفيه تركته وتزوجت.. باعت نفسها لرجلٍ متزوجٍ ويكبرها بعشرين عامًا..

تزوجته لأنه سيحقق أحلامها بالثراء وتحقيق الأحلام.. هكذا أخبرته بمنتهى البرود..

(لا توجد آثار اغتصاب..)

قابل منذ أيام أمها بالصدفة في الطريق.. حاول أن يتفادها وظن أنها لن تذكره بعد كل هذه السنين، ولكنها أوقفته ومدت يدها إليه بالسلام!

قالت له ما معناه أن (أميرة) تعيش جحيمًا مقيمًا وأنها تسعى للطلاق..

لم يقل شيئًا رغم أنه كان يفور من السعادة.. ليس لأنها ستُطلّق وتصبح حرة مرةً أخرى، ولكن لأنها خسرت رهانها القذر.. لأنها دفعت ثمن الهجر والخيانة غاليًا من عمرها.. لأنها سخرت من مشاعره الطاهرة..

كان سعيدًا لأنها تعيسة ولم يشعر بغضاضةٍ في هذا!!

أمسكها من كتفيها وأدارها على بطنها..

(لا توجد بالظهر سحجات أو كدمات أو علامات مقاومة..)

تركته لأنه غير طموح ومستقبله المهني غير مضمون.. ودخله لن يحقق لها ما تصبو إليه..

أتراها الآن حققت ما تصبو إليه؟؟

أعادها على وضعها الأول..

أومأ برأسه ويد باردة تعتصر قلبه..

(الآن أبدأ التشريح)!

قالها وهو يبعد عينيه عن وجهها وكأنه يعتذر عمّا سيفعله بها..

وقف على جانبها الأيمن.. ثم مدَّ مشرطه وشقّ بطنها.. أمسك كلّاباته ومقصاته ومضي يعمل.. !!

(الأنسجة باهتة.. هناك بقايا طعام وأقراص طبية بالمعدة.. سأبعث عيّنة منها للتحليل والفحص المجهريّ..)

لقد انتهت (أميرة) من حياته عندما فضَّلت عليه رجلًا آخر.. طردها ولم يبقَ من ذكراها سوى ندبة بشعة المنظر منزوية هناك في قلبه منذ زمن بعيد..

أكمل عمله صامتًا واجمًا كتمثال من الشمع...وبعد مرور ساعة من الزمن تنهد في أسى ومسح جبهته بظهر يده وتمتم :

(الفحص المبدئي يؤكد الإنتحار عن طريق قطع شرايين الرسغين بأداة حادة وحدوث نزيف خارجي شديد...في إنتظار نتائج فحص عينات الدم والطعام)

انتحار.. ؟

يا لك من تعسة.. !!

رفع نظراته الخجلى إلى وجهها الجميل وكأنه يعتذر عمّا فعل..

لملم أدواته في صمت وخلع قفازيه ثم أغلق بسبابته جهاز التسجيل..

obeikan.com

obeikan.com

صرخة أمل

obeikan.com

زفر بضيق.. تململ في فراشه ومسح حبات العرق المتراكمة على صدره العاري..

رفع نظراته المنهكة إلى السقف ولم تمنعه العتمة من أن يرى تفاصيله والتي يحفظها أصلًا عن ظهر قلب.. هناك تجويف.. وتلك بقعة لا يعرف مصدرها.. وذلك جزء من الطلاء هوى بفعل الزمن..

أوف.. يالها من ليلة!

النوم يجافيه منذ ساعات وهو يتقلب كالمحموم على الفراش..

الجو حار والهواء ثقيل والعرق يغمر الفراش !

ألا يكفيه ما يعانيه طوال اليوم من عناء وهوان؟

هل حقًا هي حياة تلك التي (يحياها)؟؟

لقد تخطى الثلاثين من عمره بعدة أعوام.. يقطن وحيدًا في شقة متهالكة يلتهم إيجارها نصف راتبه.. لم يتزوج ولم يقابل حتى المرأة التي تشعره بأن القادم أفضل..

لقد ترك قريته الطيبة منذ سنوات طوال وشدَّ رحاله الى المدينة ببريقها الساحر الأخَّاذ.. كانت أحلام الغد الباسمة تمرح في جنبات جسده وكان الطموح يملأ عقله وفؤاده.. ولكنه اصطدم بواقع كئيب.. أضجره الزحام حول كل شيء وأنهكه القتال على فتات الأحلام المسروقة مع المئات من البشر أمثاله..

ما فعله بالأمس هو ما يفعله اليوم وما سوف يفعله غدًا.. طعام رديء وملابس مهلهلة وطرق مكدَّسة بأشباه الأحياء..

لا مال ولا أسرة ولا مستقبل واضح.. وقطار العمر يجري مخلفًا وراءه الكثير من الضحايا..

يبدو أن الحكمة من وجود أشخاص مثله على قيد الحياة لا تختلف كثيرًا عن حكمة وجود الجرذان والخفافيش والصراصير.. مجرد (ديكور) أو مجاميع إضافية للمشهد الرئيسي كي تضفي زخمًا للأحداث.. !

زفر للمرة الخمسين ثم طالع ساعته التي تشير إلى الثالثة إلا خمس دقائق صباحًا..

أعاد رأسه مكانها ناظرًا على السقف في شرود..

لقد صار يجهل هويته وملامحه.. ويومًا ما سيرى وجها غريبًا عنه يبادله النظرات في المرآة!

لأول مرة يكتشف أن الصمت مطبق وعميق.. إنه يكاد يسمع همس الشياطين من حوله!

حوَّل رأسه تجاه باب الشرفة المفتوح عن آخره وعقد حاجبيه في تفكير عميق ثم هز رأسه نافيًا وارتسمت على شفتيه ابتسامة خجلى!

عقد حاجبيه مرةً أخرى.. بدا وكأنه يحسم في عقله أمرًا ما!

إنه يكره حياته تلك، ولكن هل حاول أن يعلن هذا أمام كل البشر.. بالطبع لا..

وكيف يصل بصوته للبشر وسط كل هذه الضوضاء التي تغلِّف حياتهم كل دقيقة وكل ثانية.. لن يستمع إليه أحدٌ.. وحتى لو استمعوا إليه ستكون مخاطرة.. فالإعلان عن غضبه الحقيقي سيكلفه الكثير.. ربما ينعته الناس بالخبال.. ربما يفقد وظيفته التافهة.. ربما ينصرف عنه أصدقاؤه القلائل.. ثم من أين يأتي بكل البشر ليعلن أمامهم رفضه للحياة؟؟

لكن الآن الوضع مختلف.. الآن الفرصة مواتية وسط كل هذا الصمت!

سيخرج إلى الشرفة والكل نيام.. لن يره أحدٌ..

سيستجمع شجاعته ويصرخ بكل قوته.. يصرخ رافضًا.. يصرخ لاعنًا.. يصرخ شاتمًا.. غير مهم ماذا يقول المهم أن يصرخ ليسمعه سكان البنايات من حوله.. سيصل صوته إلى عددٍ غير قليل من البشر.. سيثبت لنفسه أنه ما زال حرًا يملك صوتًا ويملك إرادةً..

ولكن لا.. هذا جنون.. هذا سخف حقيقي.. !

ولم؟؟ لا أحد سيعرف صوته وسينفلت بعدها للداخل مسرعًا.. لن يراه أحد ولكن سيسمعه الكل.. إنه تحدٍ ساخر لذيذ أو هو على الأقل محاولة لتغيير إيقاع الحياة الممل المكرَّر كل يوم.. ستكون تجربة طريفة تضفي بعض السرور على قلبه..

ولكنه شيء مخجل .. !

وأي خجل في هذا؟ أليس من المخجل أن يقطن في شقة كهذه.. أليس من المخجل أن تهان إنسانيته كل يوم مرات ومرات.. أليس من المخجل رضوخه المذل لرئيسه بالعمل.. الموضوع بالقياس يعتبر مزحة لطيفة.. فقط تحتاج قليلًا من الجرأة..

حسم أمره بابتسامة خاطفة وقفز من فراشه واتجه إلى باب الشرفة.. طالعه ضوء عامود الإضاءة الذي ينير جزءًا من شرفته فتراجع للخلف حتى لا يسقط في دائرة الضوء..

دقق النظر في الشرفات الغارقة في الظلام من حوله.. كانت كثيرة ولكنها خالية.. وأعمدة الإضاءة المتناثرة تنير أجزاءً من بعضها كشرفته..

استجمع شجاعته وحدد مهمته: دخول الشرفة ثم الصراخ كأعلى ما يكون ثم الانفلات للداخل مسرعًا!

نظر إلى ساعته.. إنها الثالثة إلا دقيقة واحدة.. فليجعل صرخته في تمام الثالثة.. لا يدري لِمَ ولكنه هكذا قرر!

تسارعت نبضاته وازداد جفاف حلقه.. واتسعت ابتسامته!

مرت أمامه صورته وهو يهرول خلف الحافلة المكدسة.. نظرات الركاب له والكل يهرس قدميه بلا كلمة اعتذار..

تبقت نصف دقيقة

تذكر رئيسه الفظّ وعمله المقيت وزملاءه التافهين..

تبقت ربع دقيقة..

تذكر دائنيه.. الجزار والبقال وصاحب المنزل..

تبقت ثوانٍ معدودة..

تذكر جوعه ووحدته وحرمانه الطويل..

كم يشتاق إلى وجه أبيه وحضن أمه..

إنه الآن بركان من الغضب.. إنه يغلي حنقًا.. إنه يفور سخطًا..

تعاظمت الثورة في قلبه ومرقت بنيرانها المتأججة عبر صدره إلى رئتيه..

بقيت ثانية..

أعاصير الهواء الساخنة تتدافع عبر حنجرته وترجرج أحباله الصوتيه.. فتح شفتيه..

الآن..

صرخ!

.....

صرخ رافضًا وشاكيا وباكيًا..

صرخ صرخة واحدة طويلة.. صرخة خرجت من جذور معاناته المقيتة وسافرت إلى عنان السماء.. صرخة رج صداها جنبات المكان..

ارتعد بقوة قبل أن يبتلعه الصمت مرة أخرى.. صدره يعلو ويهبط بعنف وكأنه كان يركض ألف ميل.. والعرق الغزير يبلل ملامحه..

لقد حقق ما أراد و صرخ..

لقد سمع أصداء صرخته تزلزل الحي كله وكأنه صرخ بألف لسان.. وكأن البشر كلهم صرخوا معه بنفس اللحظة..

غريب!

تقدم ببطء تجاه حاجز الشرفة ودخل دائرة الضوء..

انتفض قلبه في فزع واتسعت عيناه في رهبة وهو يطالع الشرفات الكثيرة من حوله..

شرفات قد امتلأت بعشراتٍ من البشر.. وقفوا يحدقون ببعضهم في ذهولٍ وخوفٍ ودهشةٍ عارمة!!

obeikan.com

obeikan.com

بعض النّشـَاط !!

obeikan.com

obeikan.com

مثل القميص.. لا تشعر بوجوده فوق جسدك بعد لحظاتٍ من ارتدائه وتبقى متأكدًا من وجوده - فقط - لأن الناس تقول لك حين تراك:

الله .. قميص يجنن!!

كانت هي كذلك.. !

لم أشعر بوجودها إلا لمدة شهرين بعد زواجنا ثم.. لا شيء!

كنت أشعر بها حين يسألني أحدهم: إيه أخبار المدام.. ؟!

وقتها كنت أتذكرها: جميلة مثل الطاووس.. مغرورة مثل الطاووس.. وبلا أي طعم مثل الطاووس !

مرت سنة رأى فيها الناس وجهها أكثر مما رأيته أنا.. لا لشيء سوى أنها كانت مغرمة بوضع ال (ماسكات) على وجهها طيلة اليوم طالما لا يوجد زائرون..

وغني عن الذكر أننا طبعًا ننام في غرفتيّ نوم منفصلتين مثل الناس المتحضرين!

نصف راتبي كنت أُنفقه على المطاعم.. الفاخرة بالطبع.. لأن السؤال الأبدي على لسانها حين أعود من عملي كل يوم كان:

- حناكل فين النهارده..؟

زياراتها لـ(بابي ومامي) كانت لا تنقطع.. .وتقريبًا هي مقيمة بشكل دائم في النادي مع صديقاتها..

هادئة كالسلحفاة.. رقيقة كبيت العنكبوت.. مسالمة كأسماك الزينة.. باردة مثل الجانب المظلم من القمر.. !

أنا لا أقول إني أكرهها.. كل ما هنالك أن حياتي معها اصطناعيّة جدًّا وفاترة جدًّا ومسطحة بلا أي عمق أو ارتفاع!

عمل مرموق وزوجة فاتنة وسيارة فارهة.. ماذا يطلب إنسان أكثر من هذا..؟

لست متذمرًا.. ولكنّي غير سعيد يا ربي وذلك الصقيع المترسِّب بين طيّات أيامي يكاد يـ...

إنت يا أستاذ.. .!

قالتها وهي تندفع إلى داخل الحجرة ثم أضاءت النور ووقفت متحفزة.. أخذتُ أطالع تلك الحسناء ببشرتها البيضاء وشعرها الأشقر المعقوص خلف رأسها ويديها على وسطها..

كنت جالسًا خلف مكتبي فهمست مذهولًا بحق:

أنا ؟؟

فيه أستاذ هنا غيرك.. !؟

منذ متى وهي عدائية هكذا؟ ماذا حدث؟

نهضت من مقعدي واتجهت إليها وأنا أقول بصوتٍ حانٍ :

حصل إيه يا روحي؟

طبعًا قاعد لوحدك في الضلمة وسايبني لوحدي ولا على بالك.. خلاص.. ما بقتش طايقني؟

الله!! الله!!

أكاد لا أصدق.. لقد استجابت السماء لدعائي أسرع مما كنت أتصور.. أخيرًا بعض النشاط.. !

لقد سمعت ولأول مرة الطبقات العليا من صوتها..

لم أتصور في أسعد أحلامي أن أرى بنت (بابي ومامي) ويدها فى وسطها مثل أم (شلبي) زوجة البواب.. رائع!

مين (سهير) دي؟ قالتها بلهجةٍ استجوابيةٍ وبصوتٍ خفيض كالفحيح..

لم أكن أعرف أن هذه الفاتنة يمكن أن تغار..

لقد كان زواجنا تقليديًا ولم تستمر خطبتنا أكثر من شهرين.. لم أعرف بالواقع الكثير عن شخصيتها.. كنت أبحث أكثر عن مظهر اجتماعيّ..

ربّت على كتفيها وقدتها إلى الأريكة وأجلستها ثم همست:

لا أعرف (سهير) ولا غير (سهير).. مالك يا حبيبتي انتي النهارده غريبة خالص!

شوف.. أنا أستحمل أي حاجة (إكسبت) الخيانة.. (يو جوت إت)!؟

إيه.. خيانة؟؟! يا حبيبتي اللي جاب موضوع الخيانة ده..

واحدة اتصلت بيك اسمها (سهير).. مين دي؟

لازم واحدة من السكرتارية في الشركة..

و السكرتيرة ليه تكلمك واحدة الصبح على تليفون البيت.. ؟

واحدة الصبح؟؟ده تقريبًا من دقايق.. طيب ليه ما قولتيليش.. إفرضي كانت حاجة مهمة؟

رمقتني بنظرة نارية وقالت وهي تطحن أضراسها ببعضها:

أنا مش عبيطة.. أنا عارفة أمور الستات دي كويس.. هي بتتكلم عشان تغيظني وتحرق دمي.. إنت نسيت أنا ابقى مين؟ أنا(مروة الساكت).. إزاي تسمح لنفسك إنك تعرف عليَّ واحده تانية.. انت اتجننت؟

آه.. لقد بدأت النعرة الطبقية تظهر في حديثها.. ولكن هل قالت إني مجنون.. ؟لقد أهانتني!

لأ شوفي يا مدام.. إنت تحفظى لسانك وإلا..

وإلا ايه يا افندي.. ؟

أفندي؟؟ ليه؟ شايفاني لابس طربوش؟! مش كفاية إني مستحمل برودك وصابر..

أنا باردة؟؟.. (مای جود).. إنت تقول عنّي باردة.. يا.. يا..

بمنتهى الأمانة لم أتخيل أنها فاتنة هكذا وهي غاضبة ووجهها بلون الطماطم الطازجة.. !

يبدو أنني ضغطت على الزر المناسب دون أن أدري..

لقد أهنت كبرياءها.. !

استعادت رباطة جأشها بعد لحظات قليلة ثم أشارت ناحيتي بإصبعها الرقيق المرتعش وهمست:

أنا متحملة الكتير وساكتة من ساعة ما اتجوزنا ..

لحظة.. لحظة.. مستحملة إيه إن شاء الله يا هانم؟

سلوكك البلدي.. طريقة لبسك ومنظر أهلك.. وشخيرك وانت نايم وانت صاحي وقلت أصلحك لكن ما فيش فايدة.. !

أصلحك؟؟ ليه شايفاني (وابور جاز) ..

ياي!!! ‘يه الألفاظ دي ؟

ياي؟ اسمعى يا ست انتي.. إحمدى ربنا إني لميتك وإتجوزتك بعد ما كنت قربت تِعنّسي وساكت على جنانك أكتر من سنة..

أنا عانس؟؟ أنا مجنونة؟؟ طيب طلقني لو عندك ذرة كرامة.. !

إمشي يا (مروة) دلوقتي من قدامي.. إخزي الشيطان!

يلا يابني آدم.. .خلصنى.. خلصني.. مش عايزة منك حاجة..

يا(مروة) بلاش تضغطي عليا أكتر من كده..

ياأخي مش عايزاك.. هو الجواز بالعافية.. طلقني طلقني!

زي ماتحبي.. (مروة).. انتي طالق!

نظرت إليَّ غير مصدقة..

أحسست أنها ستهوى في أية لحظة.. ربما لم تتوقع أن أرضخ لطلبها..

ربما توقعت مزيدًا من المحايلة والمهادنة..

ملأت الدموع عينيها وانفلتت تجرى نحو حجرتها..

زفرتُ بضيق وجلست على أقرب مقعد ..

لقد كنت أبحث عن بعض النشاط ليس إلا.. !

لقد مرت عليَّ سنة من الزواج الممل الكئيب.. ماذا عساي أن أفعل ؟

لقد أردت بعض الحيوية فتزوجت (سهير) سكرتيرتي!

لعنة الله عليك يا (سهير).. لم اتصلتِ الآن؟ لم تكن الليلة ليلتك.. !

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

آه آه..

كان أنينًا هامسًا وحزينًا وصادقًا!

أنين يحتاج فقط إلى أذن تسمعه وعقل يفهمه..

مابك يا صديقي.. مالك تتأوه هكذا؟

لا أطيق.. أكاد أجن.. ألا توجد نهاية لما نحن فيه؟

رويدك يا صديقي.. اهدأ

لا.. لن أهدأ لقد مللت هذا الصمت

هوّن عليك وكفاك صراخًا.. فمهما صرخت لن يسمعك سواي!

وهذا ما يشقيني.. ما أقوله أنا تسمعه أنت وما تقوله أنت أسمعه أنا ولا أحد سوانا يفهم ما نقول.. إلى متى هذا الشقاء يا إلهي..؟؟ كم كنت أتوق إلى حياة غير تلك التي نحياها.. أفعل فيها ما أشاء وأقبل ما أريد وأرفض ما لا أريد وأنعم بحريتي

يالك من حالم!

أوَ ليس من حقي أن أحلم؟

بلى من حقك أن تحلم، ولكن ليس إلى هذا الحد.. أنت هنا تعمل وتكد من أجل إنسان لا يعبأ مطلقًا بك ولا يهمه أن كنت سعيدًا أم تعيسًا

ما الحل إذن؟

أية حلول تتكلم عنها؟؟ أتريد التبجح على القدر؟ هل تريد أن تثور وتصرخ؟؟

ولم لا؟

هنا لا توجد لك حقوق.. فقط توجد واجبات عليك تنفيذها على أكمل وجه.

وإلى متى هذا الهوان؟

الصبر.. اصبر يا صديقي.

وهل سيغير الصبر شيئًا؟؟ لقد تعدى الأمر مجرد الصبر.. بل أن الصبر يُعَد الآن كفرًا وحماقة.

أنا لا أدري ماذا ألم بك هذه الليلة.. يجب أن نتعايش مع واقعنا.

أي واقع؟ الذل والهزيمة.. لقد صارت حياتنا رخيصة بل لقد أصبحنا بلا أي ثمن.

هذا هو قدرنا.

قدرنا أن نظل هكذا مجرد دمى تحركها أيادٍ غير واعية؟

وماذا تريد.. ماذا تقترح؟

الثورة..

الثورة ؟؟؟ على من؟؟ على من هم ضدنا؟؟

لا.. إنهم لا ذنب لهم فهم مأمورون ومساقون أيضًا مثلنا.

إذن على من سنثور؟؟

على ملكنا الجبان.. دومًا نقاتل من أجله وهو قابع هناك في آخر الصفوف.

ولكن الملك لا ذنب له فهو مسيَّر مثلنا وهناك من يأمره ويحركه.

وهذه هي الكارثة! لم لا يقف في وجه من يأمره ويحركه؟ لم لا يرفض ويكف عن الخنوع؟

أنت مجنون! لا توجد أية مقارنة بين قوتيهما.. سيموت ملكنا في لحظات لو فكر فقط في الرفض.

أجل لأنه جبان.

بل عاقل.. العاقل يا صديقي هو من لا يلقي بنفسه للتهلكة ويضحي بنفسه من أجل قضية خاسرة .. أنت لا تريد سوى الموت والهلاك.

الموت على مبدأ أفضل من تلك الحياة الرخيصة.

كفاك أرجوك شعارات خادعة.. هل تفقد حياتك من أجل مبدأ؟؟ من أجل رأي؟ وماذا ستستفيد حينها؟!

عندما أموت أنا وعندما تموت أنت وعندما يموت عشرات غيرنا في سبيل ما نحلم به سيأتي اليوم الذي نأخذ فيه حريتنا.

يا عزيزي نحن لا يجب أن نتكلم ولا يجب أن نشكو و لا يجب أن نثور.. هكذا خُلِقنا وهكذا سنموت لأن هذا هو قدرنا.

قدرنا قدرنا قدرنا! تتكلم عن القدر وكأنه عدونا والحقيقة أننا أعداء أنفسنا.

وكيف يا عبقري نعادي أنفسنا؟

بالصمت على الضرب المبرح وكتم الشكوى وإخفاء الألم.

وأين هو الألم؟؟ ألا يكفيك أن تكون حيًا.. أهناك نعمة أكبر من هذا؟

وحريتي أين هي؟ ما قيمة عمر بآلاف السنين وأنت سجين؟

حرية حرية.. تتكلم عنها وكأنك تعرفها.. دع الآخرين يتكلمون عنها، أما أنا وأنت فلم نعرفها قبلًا.. ارضَ بما أنت فيه وكفاك أحلام وهلاوس ستودي بك إلى الموت.

بأسلوبك هذا يمكنك تحمل كل شيء ما دمت ترى نفسك أدنى من أن يكون لك حق في الحرية وأمل في حياة كريمة.. صدقني لا أعرف كيف أصبحت صديقي بعقلك هذا؟

لأثنيك عن حماقاتك وأرشدك للصواب.. يا صديقي ما تحلم به سبقك إليه ملايين غيرك.. وقامت ثورات واندحرت ثورات واشتعلت حروب وما زال العالم كما هو.. يزخر بالملايين من أمثالي وأمثالك.

وأمثالك من العقلاء هم من يعيشون أطول.. أليس كذلك؟؟

الحمد لله.. أخيرًا فهمت.

فهمت نعم وأدركت نعم.. ولكني مازلت رافضًا وسأظل أحلم.

ممتاز.. هذا هو المطلوب.. استمر بالحلم ولا تدع الأمور تتعدى مجرد الحلم..

ولكن الأحلام ستتحقق.

دع الأمور تسير كما هي حتى يأتي هذا اليوم و.. .احترس احترس!

ماذا حدث؟

يبدو أن صاحبنا قرر الاستعانة بك فهو مغرم بالبيادق!

آه.. عدنا لنفس الشقاء.. ألقاك على خير يا صديقي الحصان.

وامتدت يد بشرية والتقطت البيدق ووضعته فوق مربع آخر على رقعة الشطرنج وهتف صاحب اليد محدثًا زميله:

هيًا.. (كش ملك) !

ردَّ زميله متعجبًا:

ولكنه مجرد بيدق.. سيأكله الملك في لحظة.

زم الأول شفتيه للحظات ثم تمتم:

غير مهم.. ما زال عندي كثير غيره.. العب العب!!

obeikan.com

obeikan.com

طريق الخلاص

obeikan.com

عقد ذراعيه فوق صدره وبقى محملقًا بعينيه في النهر الأسود الحزين أمامه..

بعض نسمات الليل الباردة تربّت على خديه من حين لآخر والصمت يسيطر على المشهد بكامله إلا من عواء كلاب الطرقات الضالة ..

كان واقفًا على (كورنيش) النيل.. مرت عليه سنوات لم يقف عليه إلا نادرًا أما الآن فقد تغيَّر الوضع..

تقريبًا لا شيء يفعله سوى التسكع في الطرقات والجلوس على ضفاف النهر المحتضر مطالعًا كل الأشياء هنا وهناك.. محاولًا أن يفهم ما يحدث ولكن بلا جدوى..

كان يملك مصنعًا صغيرًا.. العمل كان مضنيًا وشاقًا وكان يبذل مجهودًا خرافيًا لكي يؤمن لأسرته حياة كريمة.. مصاريف الدراسة لطفليه الصغيرين.. رواتب الموظفين.. مصاريف النادي.. أقساط الشقة.. حتى أبيه وأمه كان يتكفل بجزء من مصاريف حياتهما..

كان الفساد يعشش في جنبات الطرق والأزقة.. كان الناس يصرخون من غلاء الأسعار وتردي الأخلاق وانقطاع الأمل.. كان الوطن يئنّ بجراحه المتعفنة، ولكن كان بإمكانه مواجهة كل هذا..

كانت هناك حياة وكان هناك وطن!

ثم قامت ثورة جميلة وانتفض الناس.. احتشدوا في الميادين .. صلوا وغنوا وتوحدوا.. حتى رحل الطاغية الفاسد.. فملأ الأمل قلبه وقلوب كل الناس.. .غدًا أفضل بالتأكيد..

ومرَّ الغد وبعد الغد.. مرت الأسابيع والشهور.. .وازدادت الأمور سوءًا.. .

اشتباكات سياسية واقتتال في الشوارع وبحور دماء تسيل من عروق الأرض الطيبة..

تدهورت الأمور أكثر وتوقف العمل بالمصنع.. اضطر إلى صرف أغلب موظفيه.. بقى منهم المقامرون والأوفياء وكانوا قِلة.. قلة يمنون أنفسهم أن هناك يومًا قادمًا سيأخذون فيه كل حقوقهم المنقوصة..

ومرت الأيام ثقيلة لزجة.. كل صباح يحمل في رحمه كابوسًا مريرًا يولَد في آخر النهار واقعًا كئيبًا يضاف الى إخوانه الكُثر..

باع سيارته الفارهة وباع بعض أثاث بيته.. اتفق مع زوجته على الاقتصاد الشديد حتى تمر تلك الأيام السوداء على خير.. ولكن الأيام السوداء تزاوجت وتكاثرت وبات الأمل في غدٍ أفضل من وحي الخيال..

الجميع يبيعون كل شيء في سوق الحياة للمغفلين من أمثاله.. يبيعون السياسة.. يبيعون الحرية وحلم الوطن.. يبيعون الدين والجنة.. يبيعون الخيانة ويبيعون الأرض والعرض..

تنهد.. طالع في الظلام المسيطر من حوله حيث لا كهرباء تكفي لإنارة الطرقات!!

أيلقي بنفسه في ذلك النهر البارد وينهي عذابه؟؟؟ حلٌّ سخيف وساذج و مؤلم للغاية..

زفر بقوة وابتسم رغمًا عنه عندما تذكَّر أنه أقلع عن الدخان لضيق ذات اليد.. ربما كانت تلك الميزة الوحيدة لما يحدث.. !

ما بقى في جعبته من مال لا يكفي سوى أسابيع معدودة وبعدها سيبدأ مرحلة الاستدانة والشحاذة..

يا إلهي الرحيم.. !! لقد خنقه ذالك السجن البغيض من التفكير والأرق واليأس.. .قرر أن يمشي قُدمًا..

قرر أن يغوص أكثر في ظلام الطرقات لعل المعجزة تحدث ويقتله أحد ما وتنتهي المعاناة !

لا يختلف المشهد كثيرًا من مكان لآخر.. الكثير من الكلاب الضالة تمرح.. الوجوه المشبوهة في الزوايا والأركان.. كان هذا الحي في الماضي القريب حيًّا راقيًا!!

فجأة سمع أصواتًا خافتة تتبعه فتوقف.. التفت فوجد ثلاثة أشباح لأشخاص يقفون خلفه.. ميّز في يد أحدهم سكينًا وفي يد آخر هرواة.. كانوا حفنة لصوص.. !

تقدموا ناحيته في تحفّز.. دق قلبه في خوف مختلط بالفرح.. .لم يكن يتخيل أن النهاية سريعةٌ هكذا !

التفوا حوله.. فهم المقصود فلم يقاوم ومدَّ يده ببطء إلى جيبه و أخرج حافظة نقوده وسلّمها لهم..

أخذوا حافظة النقود وفتحوها.. كان يعرف ما سيجدوه بداخلها.. لا شيء!

اقتربوا منه أكثر.. وضعوا أياديهم في جيوبه وفتحوا قميصه وفتشوا حذاءه.. لم يجدوا شيئًا.. فتراجعوا وأغمدوا أسلحتهم.. ابتسموا له وألقوا حافظة النقود في وجهه وانصرفوا ببطء تاركينه بمفرده.. لم يدرِ ما معنى تلك الابتسامة.. أهي شفقة ام سخرية.. !!؟

لا.. ليست هذه النهاية.. .الأمل المعدوم يرقص على كتفيه وما في بيته يكفي لأيامٍ قليلة..

إلا إذا.. !

أسرع الخطى خلفهم.. أحسوا به فتوقفوا واستداروا متوجسين وأشهروا أسلحتهم.. فمدَّ يده إليهم.. مدها بالسلام فتسمّروا مكانهم للحظة.. نظروا لبعضهم البعض فمدَّ يده أكثر تجاههم.. تغلب على جزعه ودنا أكثر وأكثر وعندما اقترب منهم بدت ملامحهم أشد وضوحًا عن ذي قبل.. لم يكونوا مختلفين كثيرًا عنه.. ربما فقط هم اختاروا طريقًا آخر غير التسول.. !

مرت لحظات قبل أن يغمدوا أسلحتهم مجددًا.. وتعالت ضحكاتهم.. .ربّتوا على كتفيه.. احتضنه أحدهم وحمله لأعلى.. بدوا لمن يراهم عن بُعدٍ كأنهم أصدقاء جمعتهم الدنيا بعد غياب طويل..

وانصرفوا.. غابوا في ظلام الطريق ولكن لم يبتعدوا بمفردهم..

لقد كان معهم.. كان في وسطهم..

لقد عرف أخيرًا طريق الخلاص!!!

obeikan.com

obeikan.com

لحظات اختيار

obeikan.com

دكتور (جمال عبدالغفور) أستاذ الأمراض الوراثية في طب الأطفال..

كنت أنا هذا الطبيب.. اسم براق لوظيفة كئيبة.. !

يستدعونني لأفحص الأطفال وحديثي الولادة ذوي الملامح الغير مألوفة... إذا رأيت أنفا مجدوعًا وفمًا واسعًا وعين مسحوبة لأعلى فهذا الطفل يعاني من متلازمة (داون)..

وإذا كانت الرموش طويلة والشعر يغطي القفا وآخر إصبعين من الكف أقصر من المفترض فهذه الطفلة تعاني من متلازمة (تيرنر)..

والمتلازمة الطبية – بالمناسبة - تعني تلازم مجموعة من المصائب معًا.. إنها مجرد أحجية أقوم بحلها و.. لا شيء..

كيف نعالج هذه المصائب يا دكتور؟؟ اذهبوا لطبيب.. ! رائع.. أصبحت شخصًا بارعًا في حل الكلمات المتقاطعة لا أكثر..

كانت هذه هي الوظيفة المتبقية في وظائف الكلية للمتفوقين حين تخرجت من كلية الطب.. إما أن أقبلها أو أقف في صف العاطلين خارج أسوار الجامعة.. فقبلتها لأسباب خاصة رغم أنني لا أحبها.. ومرت السنون وغرقت في الكتب والصور والمراجع.. لأصبح أستاذًا في الأمراض الوراثية وأعيش شعور الأستاذية.. الأستاذ راح.. الأستاذ جاء.. وحين يأتون لخطبة ابنتي في المستقبل يقولون وعيونهم مفتوحة لآخرها:

- ده أبوها أستاذ في الجامعة.. ده دكتور في الأمراض ال... لقد سئمت ذلك الاسم حتى النخاع..

ما زلت أذكر سنيني الأولى حين كنت طبيبًا حقيقيًا أداوي الناس أو أساعد على الأقل في جعل حياتهم أفضل بدلًا من كوني نذير شؤم ألقي عليهم الأنباء السوداء وأمضي الى حال سبيلي مخلفًا ورائي (داون) و(تيرنر) و(باتاو) و

أسماء لأشخاص ربطوا ذكراهم بكوارث ومصائب طبية وهم في قمة الفخر بذلك.. !

ما زلت أذكر سنة التدريب بعد التخرج وأنا أركض في بهو المستشفى الجامعي العتيق حاملًا في يدي أكياس دم طلبوها على عجل في غرفة عمليات الطوارئ وأنظار المرضى البسطاء تبجلني وهم على يقين بأن الدنيا متوقفة على نجاحي في مهمتي المقدسة لتوصيل أكياس الدم هذه على صاحب النصيب..

دائمًا وأبدًا ما يكون في (بنك الدم) في أي مستشفى جامعي محترم طبيبات حسناوات مثل (داليا) أو (رشا) أو (رنا).. أو أي كائن جميل رقيق بمعطف لؤلؤيٍ أبيض.. كائن هو الحلقة التطورية المفقودة بين الإنسان والقطط الشيرازي وعصافير الكاناريا ..

كائن كلما تعبت ازدادت جمالًا.. وكلما تكلمت لابد وأن تنصت لها.. وإذا ابتسمت في وجهك تبتسم الدنيا كلها لك..

وكانت (داليا) طبيبة مقيمة في بنك الدم وكنت أحبها بجنون منذ أن دخلنا الكلية.. ست سنوات أعشقها في صمتٍ ومن طرف واحد.. من طرفي طبعًا!

وبالطبع (داليا) كان لها أب.. ولكن ليس كأي أب! كان أستاذًا في جراحة التجميل في نفس المستشفى الجامعي العتيق.. دكتور(حازم برهان)..

كان والدها من تلك العينة التي تشتكي من أن (باريس) هذا الشتاء كانت مزدحمة بطريقة غير مألوفة وأن صيف (أمريكا) هذا العام أفضل من العامين الأخيرين.. وأن أفضل مطعم أسماك في أوروبا يقع في شارعٍ ما في (روما).. وأنه من العار أن لا تقضي إجازتك في جزر (بورا بورا) في المحيط الهادئ ولو مرة كل ثلاثة أعوام..

هل تعرف تلك الشخصيات التي تشعر في وجودها أنك لا تفرق أي شيء عن صرصور الغيط.. ؟

وبسبب (داليا) وأبيها كان لابد من أن أقبل بالوظيفة الوحيدة المتاحة التي تكفل لي لقب الأستاذية مستقبلًا..

قبلتها لكي أقلل الفجوة السحيقة التي بيننا ولو حتى بضعة ملليمترات..

وعندما صارحت (داليا) بمشاعري.. رفضتني.. رفضت حب كل هذه السنين لأن والدها معترض على المبدأ من أساسه.. رفضت بسبب الفروق الاجتماعية بيننا.. رفضت لأنها لن تستمر هنا وستتزوج الدكتور(أكرم) زميلها وتعيش في (النمسا) مع (مامي)!

وانتهت القصة الجميلة المستحيلة ووجدتني وحيدًا عالقًا في براثن تلك الوظيفة المقيتة أشق طريقًا كئيبًا تملؤه الوجوه المشوهة والأسر المكلومة..

ذكريات وسنوات كلها تعب وكفاح، ولكنها لا تخلو من متعة في بعض الأحيان..

وكالمعتاد بعدها بسنوات تزوجت من فتاة من (البلد).. كانت(بنت حلال) ومطيعة ورزقنا الله بطفلين..

واستمرت الحياة رتيبة بحلوها ومرِّها.. ولكن ظلت صورة (داليا) وصورة جزر(البورا بورا) في خيالي عالقة لا تريد الرحيل.. !

صباح جديد مثل أي صباح.. أذهب إلى المستشفى لأفحص مرضى آخرين وأزف البشرى إلى آباء وأمهات جدد بأن أطفالهم سيعانون من ثقوب بالقلب وضمور بالمخ ومشاكل في المفاصل ثم أنصرف تاركهم مذهولين مضببين بمستقبل غامض كئيب.. منتهى الروعة.. !

دلفت إلى مكتبي لأضع حقيبتي وأوراقي قبل أن أبدأ مروري المعتاد على المرضى..

وتسمرت مكاني من المفاجأة.. !!

كانت هي جالسة هناك.. !! هكذا بلا مقدمات ولا إرهاصات ولا إشارات!

عصفور (الكناري) جالس على الأريكة الجلدية البنية العتيقة التي تتصدر غرفة مكتبي.. أريكة لن أدع أي شخص يجلس عليها بعد الآن وسأضع حولها شريطًا أحمرَ براقًا وأجعل مشاهدتها بتذاكر..

حلم العمر الجميل العالق في تلافيف عقلي جالسة هناك أمامي تنظر مباشرة إليّ..

يا إله السماوات! هل أحلم أم هذا هو الواقع السعيد؟

طبعًا ارتبكتُ واحمرَّ وجهي وارتفع ضغطي وهوت أمعائي ثم هتفت بصوت متوتر مرتعش :

(داليا)؟؟ عفوًا.. دكتورة (داليا)؟؟؟ يالها من مفاجأة رائعة.. نورت المكان.. متى عدتِ من (النمسا)؟؟

صافحتني بيد ناعمة باردة أخف من غاز(الهيليوم) وعلى الفور تكورت بجوارها على حافة الأريكة وأنا أنظر إليها مشدوهًا وكأني قابلت لتوي (النداهة) في غيط ذرة مظلم..

نظرت نحوي بعينين ساحرتين حزينتين.. برغم مرور السنين مازالت هي نفس القطة (الشيرازية) الخلابة..

-كيف حالك يا (جمال).. تبدو رائعًا..

-الحمد لله.. أشكرك..

بقيت أنظر إليها غير مصدق.. ومن بين شفتي تسرب السؤال همسًا:

- ولكن ما سر هذه المفاجأة السعيدة؟ متى أتيتِ؟؟ وكيف حال الدكتور.. أ.. (أكرم)؟

- سأخبرك كل شيء، فأنت لست غريبًا يا (جمال).. لقد أنجبت طفلة مريضة منذ أعوام وتوترت بعدها علاقتي ب (أكرم) كثيرًا وانتهى الموضوع بيننا مؤخرًا بالطلاق.. كانت زيجة مدمرة بكل معاني الكلمة!

الله الله الله !!!

هززت رأسي وطحنت أضراسي ببعضها وكأنني أعاني من تأثرٍ مفرط وحزنٍ عميق، ولكن كنت في حقيقة الأمر أكبح قدميّ من أن تدفعني لأعلى كي أبدأ فقرة الرقص (البلدي).. فما يحدث أغرب من الخيال.. وأكملت هي بعد لحظات:

- لم أستطع رعاية طفلتي بمفردي و(مامي) مشغولة دومًا فقررت أن أرجع إلى مصر وأستلم وظيفتي في الجامعة.. وكنت أنت أول من أردت أن أراه..

- هذا شرف عظيم يا دكتورة (داليا).. أنا سعيد أنك لا زلت تذكرين اسمي أساسًا!

ضحكت ملء فيها وهتفت بأنفاس متقطعة:

- غير معقول يا (جمال) أنت لم تتغير.. مازلت كعهدي بك طيب وبسيط وتلقائي.. أرجو أن لا تكون غاضبًا مني بسبب أحداث الماضي.. الظروف وقتها كانت مختلفة وتقيمنا للأمور كان كذلك مختلفًا..

"وقتها"! ؟ معنى ذلك أن الظروف الآن مناسبة؟ ولكن لماذا.. ؟؟ أين ذهبت الفجوات الشاسعة بيننا؟؟ ما الذي بدلته السنوات الفائتة؟؟ عمومًا لا تهم التفاصيل والأسباب.. يكفيني أن أعود أراها مرة أخرى..

بدأ الثلج يذوب سريعًا بيننا فبادرتها بالسؤال عن أبيها الأسطوري:

- وكيف حال الوالد.. الدكتور (حازم)؟

- بخير.. ومتابع لنشاطاتك الطبية والبحثية بشغف.. ونصحني أن أتابع معك طفلتي إن لم يكن عندك مانع طبعًا..

الدكتور(حازم برهان) يتابع أعمالي البحثية.. .وبشغف! سبحان الله.. لقد رفض حتى أن يقابلني حين تقدمت لطلب يد ابنته!

أسرعت هاتفًا وبكل ترحيب وبشاشة:

- طبعًا طبعًا سأتابع حالتها وأشرِف بنفسي على الفريق المعالج لها.

رعايتي المكثفة لابنتها سيمنحنا مزيدًا من الحديث والتلاقي.. سأكون إلى جوارها كل الوقت أواسيها وأظلل عليها وأحميها من قيظ الدنيا القاسية..

الله...! ما أجمل الشعور بالسكينة بعد أعوام وأعوام من اللهاث والضياع.. لقد عاد الأمل ينثر ألوانه الصاخبة المبتسمة على صفحة حياتي من جديد..

يبدو أن الأستاذية في النهاية أصبحت مفيدة.. !

رفعت عينيّ إليها أحتويها بين جفنيّ.. أرقب كل خلجة وكل نفسٍ وكل لفتة ضاعت مني في تلك السنوات العجاف !

من يدري يا أميرتي ربما ذهبنا إلى (بورا بورا) سويًا!

اهتز بغتة الهاتف المحمول في جيبي فأجفلتُ وأخرجته ونظرت على شاشته الزرقاء الباردة حيث كانت هناك رسالة من زوجتي تطلب مني شراء بقالة الأسبوع!

ماذا..؟؟ زوجتي؟؟!! لقد نسيت أن عندي واحدة !

لقد نسيت أن عندي صبيًّا وفتاة رائعين.. لقد نسيت أن عندي أسرة ومنزلًا دافئًا صغيرًا..

لقد أنستني صدمة اللقاء المفاجئ أن عندي أناسًا ينتظرون عودتي للمنزل كل مساء.. أناس طيبون ليس لهم دخل بأحداث الماضي القديم ولا بأحلامي المستحيلة وقتها..

كنت لا أزال محملقًا في الهاتف كالمسحور.. تائهًا بنظراتي بين الطماطم والخل والزيت واللحم وثمار الموز..

- خير يا (جمال) ؟؟ مالك.. هل هناك أخبار سيئة؟؟

- لا شيء.. لا شيء..

قلتها وأنا أنهض من جوارها وأبدأ في جمع أوراقي من فوق صفحة المكتب..

كانت أصابعي ترتعش وأنفاسي تلهث وقلبي يخفق بغضب عاصف..

قد كنت ملكك يا أميرتي منذ سنوات عديدة مضت.. كنت أذوب عشقًا فيك ورغم ذلك رفضتِني وما زلت أنا نفس الرجل الذي رفضتِه سابقًا.. ربما بضعة ألقاب أكاديمية ازدادت على اسمي ليس إلا..

دومًا ما تكون الخيارات صعبة.. وغالبًا ماتكون العواقب وخيمة إذا أسأنا الإختيار!

رفعت نظراتي الحانقة المعاتبة تجاهها وتمتمت:

- عذرًا يا دكتورة ولكن يجب أن أنصرف الآن.. إنه وقت المرور على مرضاي.. أهلًا بك مرة أخرى

صمتت للحظات مندهشة من فتور الأمور بيننا بتلك السرعة ثم همست:

- هل.. هل سأراك مجددًا؟

ياله من سؤال صعب !

تنهدت وأحكمت قبضتي على الأوراق.. لم أعرف كيف أجاوب سؤالها.. فقط نظرت إليها نظرة خاوية وعلى شفتي ارتسمت ابتسامة ضحلة ثم هززت رأسي معاتبًا ومعتذرًا وغاضبًا.. قبل أن أنصرف مغادرًا مكتبي..

obeikan.com

obeikan.com

الفرار

obeikan.com

وقفَت طويلًا أمام المرآة تتأمل نفسها.. ثم أطرقت برأسها ومدت كفّها المعرورقة والتقطت صورةً ذات إطارٍ خشبي عتيق..

كانت صورة قديمة بالأبيض والأسود لامرأة في ريعان الشباب.. أنوثتها الفائرة تفيض من نظرات عينيها السوداوتين الواسعتين.. شعرها الناعم الطويل يحيط وجهها الأبيض المستدير بدلالٍ مثيرٍ.. ابتسامتها الصافية تزيّن ثغرها الدقيق.. عنقها الرخامي ممشوق كتمثال روماني بديع..

أغمضت عينيها في ألم وأعادت الإطار الخشبي مكانه.. ثم فتحت عينيها مرة أخرى ونظرت بحسرةٍ إلى نفسها في المرآة.. فقد كانت هي نفس المرأة صاحبة الصورة القديمة، ولكن بعد مرور أربعين عامًا.. !

زمّت عينيها قليلًا وقرّبت وجهها أكثر من المرآة كي ترى جيدًا.. ياله من وجهٍ صارمٍ عجوز!

تجاعيد الزمان وتلافيفه منحوتة على صفحة وجهها بكل مهارة.. شعرها الفضي القصير يعتلي رأسها وينسدل في حياء إلى كتفيها.. شفتاها الرفيعتان تكشفان عن بقايا أسنان دمرتها لفافات التبغ..

أحسّت بظهرها المحني يؤلمها وسيقانها الواهنة ترتعش من طول الوقوف أمام المرآة فتراجعت لاهثة وهي تستند على قطع الأثاث من حولها حتي جلست ببطءٍ على حافة الفراش..

لقد هرول بها الزمان إلى شيخوخة قاسية..

كانت تعلم أن الشباب لا يدوم ولكنها لم تتخيل أن تكون النهاية مقيتة إلى هذا الحد.. بعد أن كانت تملك كل شيء أصبحت الآن مُعدمة.. !

لقد كانت امرأة فاتنة تخلب عقول الرجال بنظرة واحدة..

كانت تسيطر على الجميع بجمالها وذكائها في كل مكان.. في المنزل وفي العمل وفي الطريق!

كانت هي المتحكمة الآمرة دومًا.. لم يرفض لها أحد طلبًا منذ أن كانت صبية صغيرة..

دومًا ما كانت تعشق السلطة وتبجل النفوذ وتقدس المال والذهب.. دومًا ما كانت تحلم بأن تكون السيدة والكل خدم تحت قدمها.. كانت تملك الجمال والذكاء والطموح والرغبة وكانت فقط تنتظر الفرصة المناسبة..

وجاءتها الفرصة الذهبية وتعرفت على أحد أعضاء (مجلس النواب) وأوقعته في براثن فتنتها وتزوجته.. وكان يحبها بحق.. وعلى الرغم من مكانته السياسية إلا أنه كان طيب القلب.. كان متخمًا بأموال عائلته العريقة في الصعيد.. بعدها استهوتها دنيا المال والسياسة برونقها وأناقتها وبدأت تخطو بثقة في عالم الصفقات والمشاريع الضخمة.. كثيرون أرادوا مشاركتها العمل وغير العمل.. ولم ترَ ضيرًا وقتها من إقامة علاقات عابرة لمصلحة العمل.. كانت تستخدم كل (الأوراق) التي في يدها كي تنتصر.. وأثار هذا حفيظة زوجها فحذرها من التمادي.. .لكنها لم تصغِ بل وطلبت الطلاق..

كثيرون من يريدون دفأها.. فلم تحجب شمسها عن عشاقها وتكتفي بواحدٍ فقط.. حتى لو كان زوجها!؟

نهضت متثاقلة واتجهت إلى خزانة الملابس وأخرجت صندوقًا خشبيًا صغيرًا مزركشًا بالأرابيسك.. أخذته وعادت به إلى الفراش ثم فتحته بأصابع مرتعشة.. وردة مجففة مع عشرات من الخطابات والصور احتفظت بها طوال تلك السنوات.. كانت من بعض من وقعوا في نيران حبها في سنوات شبابها المبكرة وبعضها من زوجها.. .لكم تفتقده!

مهما كانت وصولية ومتسلطة وشبقة للثراء فهي في النهاية أنثى لها مشاعر وأحاسيس وأحلام ساذجة.. إنسانة من لحم ودم!

دفنت وجهها بين كفيها تبكي وهي تتذكر كيف كانت مع كل ليلة حمراء تكون فيها المليكة المتوجة كان أحدهم يُفلس أو تُحرق مصانعه أو يدخل السجن بتهمة ملفقة..

كان إدمانها للنجاح يسيطر عليها ويدفعها بجنون للأعلى حيث يعيش الكبار..

كان لها ضحايا كثُر.. والدرس الذي لم تنتبه إليه وقتها هو: لا تترك أبدًا وراءك ضحايا أحياء! ضحايا يمكنهم الوقوف على أقدامهم بعد حين والعودة للانتقام..

ووسط خضم الأضواء والسهرات والصفقات.. وسط ضجيج الانتصارات والأوراق الخضراء وتأوهات الليل المنتشية.. نسيت زوجها المكلوم والكثير من الضحايا أحياءً وراءها هناك!

وبغتة شعرت أن لعبة السياسة تتغير في اتجاه آخر ولم تعد تفلح تضاريس الجسد ولا نظرات العيون ولا دلال الحديث في الإقناع أو إبرام الصفقات.. وبدأت لحظات العمر السعيد تتسرب بصمتٍ من بين أصابعها إلى غير رجعة..

لقد ذهب الجمال وخبت نيران الفتنة في عينيها ورحل المريدون والأتباع.. غابت شمس ملكها العظيم وأصبح فراشها باردًا إلى الأبد.. وحان وقت الحساب!

عاد الضحايا يبحثون عن ثمن ما فعلته بهم.. عاد الضحايا يبحثون عن المال.. يبحثون عن الشرف.. يبحثون عن الدم!

ولأول مرة في حياتها العريضة عرفت معنى الفزع واشتمّت رائحة الخوف.. وبدأت رحلة الهروب الطويلة..

كثيرون ممن كانوا يذوبون عشقًا في أصابع قدميها كانوا هم أول من طعنوها.. ولكن لأنها قوية ولطالما كانت.. تحملت وواصلت رحلة الهرب وهي ترد الضربات قدر استطاعتها..

من مدينةٍ إلى مدينة.. ومن شارعٍ إلى شارع.. ومن منزلٍ إلى منزل.. استمرت قصة الفرار المحمومة..

لكن دبَّ الوهن في عظامها وتسللت التجاعيد كالأفاعي أسفل وجهها.. وأصبحت لا تقوى على مواصلة الفرار رغم أن رائحة الخوف ما زالت تعشش في طيات ثيابها..

ربما رحل من يبحثون عنها إلى غير رجعة، ولكنها لا تستطيع تحمُّل المخاطرة.. لابد أن تبقى هكذا منزوية وصامتة.. تتلفت حولها مع كل صوتٍ غريب وتفرّ مجددًا إذا ما أطال أحدهم النظر إلى وجهها..

اندفعت دمعة حارة من عينيها.. فرفعت كفيها المرتعشين تتحسس وجهها كأنها تبحث عن شيء ما.. أين النضارة.. أين الحسن.. أين الدلال؟؟ مالذي حدث؟؟ ما الذي فعلته بنفسها؟؟؟

لقد اختارت بكامل إرادتها دربًا مخيفًا كي تمشيه.. دربٌ ينتهي بهاويةٍ سحيقة..

ذات يومٍ فعلت كل ما تتمناه وتحلم به أية امرأة.. عشقت وعملت وسافرت وأصبحت من الثريات..

أما الآن فهي مجرد عجوز وحيدة محطمة.. مسجونة في تلك الغرفة المتواضعة في أطراف المدينة..

غريب جدًا ما نشتاق إليه في لحظات الصدق الحقيقي مع أنفسنا..

إنها تشتاق فقط إلى الأمان..

تشتاق إلى شخص صادق تتحدث إليه..

تشتاق إلى كتف دافئ ترتكن عليه وتبكي..

تشتاق إلى التوبة والصفح والغفران..

تشتاق إلى النهاية.. !

obeikan.com

obeikan.com

ثقةٌ عمياء!!

obeikan.com

obeikan.com

لا أعرف لماذا نثق في من حولنا أكثر مما ينبغي.. !

كيف تثق في أن سائق التاكسي الذي تركبه لن يقفز بك في النهر أو يلقي بالسيارة أمام قطار؟

كيف تثق في الحلاق هكذا وبمنتهى البساطة تسلمه عنقك وكأنها ليست حياتك أو كأنك تزج بنفسك في اختبار ما للشجاعة؟

كيف تستلقي آمنًا كل ليلة بجوار امرأة كل ما يربطك بها أنها.. زوجتك!

امرأة أعطيتها اسمك وحلمك وحياتك.. وربما كانت تلك غلطتك القاتلة!

نحن نبالغ في ثقتنا بأنفسنا وبمن حولنا إلى حد الحماقة.. !

دار كل هذا في عقله وهو ممدد على فراشه يطالع زوجته بناظريه وهي تحرث أرض الغرفة أمامه جيئةً وذهابًا.. يمينًا وشمالًا.. يدها فوق رأسها تارة.. ذراعاها معقودان فوق صدرها تارة.. تنظر للسقف تارة وتدفن نظراتها بين قدميها تارة..

القلق يأكلها والتفكير يدمّر الخلايا الرمادية القليلة الباقية على حالها في عقلها..

أخيرًا توقفت عن الحركة.. صدرها يعلو ويهبط بسرعة من فرط التوتر.. سحبت مقعدها الخشبي الصغير وجرته بجانب الفراش حيث يستلقي هو بلا حراك

اللعنة عليك.. !!

همست بها وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين الجميلتين..

أنت السبب في كل شيء.. كل شيء..

مسحت وجهها بكفيها المرتعشتين وأخذت شهيقًا عميقًا قبل أن تواصل النظر إليه بكل غلٍّ وحنق:

كنت أجمل فتيات الحي.. وتزوجتك وتحملت معك كل المُر.. ولكني اكتفيت.. لم أعد أرغب في تلك الحياة التي تُؤجَل فيها الأحلام إلى أمدٍ غير قريب.. حتى أمنيتي الوحيدة في الإنجاب حرمتني منها..

نهضت مجددًا وشرعت تجول في الغرفة وهي تشيح بذراعيها:

بيت بال في حي معدم وزوج غير موجود.. ووجوده كعدمه.. أهل فقراء معدمون.. الفرار إليهم أسوأ من الانتحار حرقًا.. ماذا عساي أن أفعل.. ها؟؟

صرخت في وجهه وقد احتقنت ملامحها:

ماذا أفعل غير ذلك.. ماذا أفعل؟؟

عادت تنهار بجواره على الفراش.. وجسدها يرتج بالبكاء..

لم يتحرك.. بالواقع لم يكن بإمكانه أن يحرّك حتى عينيه المفتوحتين.. أنفاسه ضحلة ومتباعدة.. البرودة تسري في أطرافه.. وصوت قلبه يسمعه بعيدًا خافتًا بطيئًا..

عندما عاد إلى المنزل هذا المساء.. تناول فقط كوبًا من الشاي.. هي أعدته بيديها.. لابد وأنها دست فيه سُمًا.. الآن هي تظنه ميتًا!

بالأمس عندما عاد من عمله مبكرًا على غير عادته وجدها في أحضان شاب غريب.. هنا.. فوق نفس الفراش المسجى عليه هو الآن..

شلّته الصدمة فهرب الخائن وارتمت هي تحت قدميه تنتحب وتعتذر وتستجدي أن يداري فضيحتها..

لم ينطق بشيء ولم يفعل شيئًا.. ربما ليداري فضيحته هو.. !

لقد طعنته في كبريائه وشرفه ورجولته حتى وإن كانت رجولة منقوصة..

لم يدرِ ما العمل.. اختفت وقتها كل الأصوات والرؤى والمشاعر.. لم يبقَ غيرُ هَمٍّ أسودٍ ثقيلٍ جاثم فوق أنفاسه وكتفيه..

داهمه خاطر أن يقتلها ثم يبحث عن ذلك الخائن الذي حفظ تراسيم وجهه..

إنه ما زال يحتفظ بمسدس قديم ورثه عن والده ولم يخبرها قط عنه حتى لا تقلق.. فليحضره من مخبئه ويفرغ طلقاته في رأسها.. ثم يبحث عن ذلك الخسيس ويذيقه مر العذاب.. سيجعله يتمنى الموت ألف مرة..

ولكنه لم يفعل وقتها أي شيء.. لقد أيقن أنه أضعف من أن يفعل.. إنه ما زال يحبها رغم عفن الخيانة الذي صار يملأ أنفاسها..

رضخ أخيرًا أنه لا حلول حاضرة متاحة ولا عودة للماضي حيث نعمة الغفلة والجهل ولا مستقبل قادم في الأفق يحمل في طياته النسيان والسلوى..

ومرَّ الليل كئيبًا لزجًا خاليًا إلا من صوت نحيبها.. وفي الصباح التالي انسل إلى عمله كشخصٍ عادي قضى ليلته بجوار زوجته المحبة الحنون.. كل ما فعله هو أن أغلق عليها باب الشقة كي لا تهرب وتتركه وحيدًا!

عندما عاد في المساء يجر جسده وبقايا عقلٍ مُدَمر وقلبًا ما زال ينزف.. كانت هي هادئة جميلة مبتسمة.. ناولته كوبًا من الشاي ومسحت على رأسه وقبلت قدميه!

أخذ رشفتين وبعدها لم يدرِ ما حدث غير أنه الآن مُلقىً على فراشٍ لوثته الخيانة البغيضة..

كان يحبها.. لم يتوانَ عن فعل شيء تتمناه طالما استطاع ذلك.. كان يريد أن يعوّضها عن عقمه غير المسئول عنه.. ولكنها كثيرًا ما كانت تمتعض

وتتأفف.. كانت دومًا تعايره بنقصه وبفقره.. كانت تحلم أكثر من طاقته على التلبية.. وتحمّل كل سخطها في صمت حتى اكتشف البارحة كم كان مغفلًا ساذجًا..

أدرك متأخرًا أنه أضاع من عمره معها خمس سنوات..

إنه لم يختر أن يكون فقيرًا.. لم يختر أن يكون عقيمًا.. لم يختر أن يتزوج امرأةً لعوبًا.. لم يختر أن ينتهي هكذا مسمّمًا على فراشٍ قذر..

أي خياراتٍ أتاحتها له هذه الحياة الرثة؟؟

لم يكن يحمل في جنبات قلبه البسيط إلا الحب والإحسان.. أهكذا تكون نهايته؟

نهضت أخيرًا من جانبه.. أمسكت هاتفها وطلبت رقمًا قبل أن تصيح باكية:

أين أنت؟.. نعم مات.. شرب الشاي كما قلت لي..

صمتت لثوانٍ قبل أن تصرخ:

كيف لي أن أهدأ؟؟ لقد تأخرت كثيرًا.. ماذا.. أمامك ساعتان حتى تصل؟؟

ألقت الهاتف على الأرض ورمت جسدها على الفراش بجواره تبكي..

ألف لعنة.. أمازال أمامه ساعتان أخريين من هذا العذاب البطيء؟؟

ألا تحفظ له ذكرى واحدة جميلة.. ألا تذكر كيف كانت ضحكاتهما تعبئ تلك الجدران سعادة وهناء قبلًا؟؟

ألن يرق قلبها له وتدرك كم هي ظالمة غاشمة؟؟

سلبته سعادته ثم اغتصبت شرفه والآن ها هي تنتزع حياته بكل قسوة وجفاء..

مهلًا!...

لقد تحرك جفناه بغتة.. أجل لقد تحركا..

شعر بدقات قلبه تضطرب وتزيد..

ابتلع لعابه في صمت.. إنه يشعر ببعض الدفء يدب رويدًا رويدًا في أطرافه..

حسنٌ.. فليحافظ على الأمر سرًّا بينه وبين نفسه حتى يستجمع أشلاء قواه الهزيلة المبعثرة من أطراف جسده شيئًا فشيئًا..

إنه لا يملك ترف الانتظار طويلًا ولكن ليس أمامه حلول أخرى..

لابد أن يراجع قراراته السابقة ويقرر شيئًا مختلفًا خلال ذلك الوقت..

ومن يدري.. فقد يحدث الكثير في ساعتين.. !

obeikan.com

obeikan.com

مُنتهى الرّحـولة..!

obeikan.com

obeikan.com

إنه الصورة المثالية للرجل.. !

دومًا ما تملأني تلك الفكرة كلما رأيته يجلس يطالع أوراقًا ما مبعثرة فوق المنضدةِ أمامه..

ذقنه نصف حليقة ولُفافة التبغ بين إصبعيه.. فنجان القهوة دائمًا هناك وكأنه لا ينتهي، وتلك النظرة في عينيه تنبئك بأن هناك شيئًا خطيرًا دومًا يحدث.. !

أكاد أقسم إني لو كنت امرأة لفُتِنت بهذا الرجل.. !

تلك العوينات الزجاجية المستديرة وخصلات الشعر الرمادي تغطي جبهته.. وربطة عنقه الفاخرة دومًا غير معقودة..

ولشد ما ازداد إحساسي برجولته عندما عرفت من ساقي المقهى أنه "مُطَلّق"!

لا أدري لماذا ولكني أشعر أن الطلاق يزيد الرجل رجولة.. !

نظرت إلى الساعة التي تحتل ركنًا باهت الإضاءة في المقهى الذى نجلس فيه كل ليلة.. كانت تشير إلى العاشرة مساءً.. ما زال الليل بكرًا وما زال أمامي بعض الوقت قبل أن تضمني جدران شقتي الباردة..

ما زال صديقي- الذي لا أعرفه - يقلّب في الأوراق وما زال ينفث دخان سيجارته وهو يهز رأسه وكأنه يعرف أسرار الكون..

كلما ضمّنا هذا المقهى، وبعد أن ينصرف أصدقائي أود أن أذهب إليه لأتكلم معه.. ولكن في كل مرة أشعر بمدى سخافتي وتطفُّلي.. فأهز رأسي فى استسلام ثم أدس المال في يد الساقي وأنصرف وأنا أشيّع ذلك الغريب بنظرة سلامٍ قبل أن يبتلعني الطريق وأتوه في الزّحام..

ولكن هذه الليلة تختلف.. لمَ ؟؟ لا أدري..

أنهيت مشروبي واستجمعتُ شجاعتي.. أو بالأحرى"غلاستي"!

نظرت حولى ثم نهضت من مقعدي وتوجهت إليه و..

"مـ.. مساء الخير...!"

قلتها وأنا أكاد لا أتخيل أني أقحم نفسي في سكينة هذا الرجل هكذا بلا أي استئذان.. عمومًا لقد رفع رأسه ببطء وهو يتطلع إليَّ فى دهشه ثم أومأ برأسه بما معناه: "خير.. "؟؟!

أردفت بلهجة حاولت قدر استطاعتي أن أجعلها ودودة:

"(أشرف).. (أشرف فوزي).. محامي..."

مد كفه يصافحنى وهو ما زال مشدوهًا

"(شرين كامل).. صحفي"

(شرين)!!؟ اسم رنان على كل حال...ولكن مهلًا..

"ألست أنت صاحب عامود (ش.ك) الشهير.. ؟"

ابتسم وأردف : "فعلًا...أنت سريع البديهة"

أحسست أن الأمور تسير بشكل جيد فسحبت مقعدًا وجلست:

"أنا أتابع عامودك بشكل يكاد يكون منتظمًا.. إنه رائع"

أجاب بتحفظٍ و تواضع:

"أشكرك.. .حضرتك محامي؟ هل من شيء أسديه لك...؟"

"لا.. كل ما هناك أني أردت التعرف عليك.. بالواقع أنا أراك منذ فترة و... "

خلع عويناته وأرقَدها برفق على الأوراق ثم قال في هدوء:

"الواقع يا أُستاذ (أشرف) أنا مشغول بكتابة مقالي الأسبوعي في الجريدة و.. "

"لا توجد مشكلة سأنصرف حالًا، ولكن اسمح لي.. عن ماذا يدور مقالك هذه المرة.. يعني.. اعتبره شرط انصرافي!"

قلتها وأنا أضحك بشكل أخوي، ولكن ضحكتي خرجت متوترة فزادت من سخافة موقفي، ولكنه تلقى الأمر ببساطة وأجاب:

"أ.. أ.. موضوع الغد يدور عن دور الزوجة المهم في حياة الرجل، وأنه لا يُتَصور أن تكون هناك أي حياة بلا امرأة تروي هذه الحياة بحنانها ورجاحة عقلها"

هززت رأسى وأنا أضم شفتيّ بشكل يوحي بخطورة الموقف..

أى امرأة يتكلم عنها هذا الرجل.. لقد أخبرني الساقي أنه سمعه ذات مرة يرغي ويزبد على الهاتف وهو يتوعد زوجته بخراب بيت أهلها وأنها لن ترى منه قرشًا واحدًا..

لا مشكلة.. بعض الناس يلجأون إلى تجميل صورته.. الأمر بعيد عن الكذب.. بالعكس إنه يزيده جاذبية!

ثم أردف :

"هل تعلم أن الفنانة الكبيرة (فوزية وهبي).. رفضت الزواج لمدة خمسة أعوام كاملة بعد وفاة زوجها.. إنها مثلي الأعلى فى الإخلاص.. إنها الصورة المثالية لأي امرأة"

وهززت رأسى مجددًا وأنا أفكر في كيفية إعجاب مفكر سياسى مرموق بـ(سلة قمامة) مثل (فوزية وهبي) هذه.. فضائحها تملأ صفحات الجرائد ومواقع التواصل الاجتماعي .. حقًا نقلة فكرية تسبب الدوار.. ولكن لا بأس.. إنه إنسان مُطّلع ليس إلا.. !

دسَّ في فمه لفافة تبغ وأشعلها.. يبدو أنه استهوى الحوار معي.. !

أود لو أسأله عن رأيه في الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط..

"هل تعرف.." أشار بكفه الممسكة بلفافة التبغ وقال بحماس:

طالما أن حضرتك تحملت كل هذه المشقة لتتعرف عليّ.. دعني أهديك هدية.. لقد اتصلت بي (أنوار) هذا الصباح.. تدعوني على.. طَ لَ ا قِ ها!!"

قالها بنفس التقطيعات وعلى شفتيه ابتسامة لا تتناسب بأي حال مع مكانته العلمية والسياسية والـ..

"تخيل يا أستاذ أشـ.. أشرف أليس كذلك.. ؟.. تخيل المأفونة تحتفل بطلاقها من (رامي فوزان).. الثري العربي.. !!"

ضحك وهو ينفث دخان سيجاراته في حلقات.. !

المسكين لقد أفقدته السياسة عقله..

ثم مال تجاهي وهو يهمس:"ما رأيك بـ (أنوار).. ؟"

تراجعت وارتبكت للحظة ثم تمتمت: "رأيي..؟؟؟ إنها راقصة جيدة!"

"جيدة؟؟ إنها مذهلة يا صديقي.. ربما أنت فقط لم تجربها !"

قالها بصعلكة وهو يضحك كإبليس لو كان هذا الملعون يعرف الضحك..

من المؤكد أن هذا الرجل يعانى من أزمة نفسية عنيفة...

ولكن مهلًا.. لقد فهمت موقفه.. إنه يريد التباسط معي.. إنه يظنني من عامة الناس الذين تبهرهم مثل هذه الأمور.. لابد أن أغيّر نظرته تلك عنى وفورًا..

كان يحدق في الأوراق أمامه وهو يمتص دخان سيجارته بشغفٍ واستمتاع.. حسنًا فلأبهره الآن..

"أستاذ شرين.. "

"م م م م!!"

" هل تعتقد أن المد (الروسي) الجديد بالمنطقة الآن هو بنفس قوة المد (السوفييتي) في الستينيات.. يعني هل سيوقف هذا المد السيطرة الأمريكية على مجريات الأمور في الشرق الأوسط؟"

مرت لحظات ثم أدار رأسه تجاهي ببطءٍ وكأنه يمثل في فيلم بالحركة البطيئة..

قضّب حاجبيه وهمسَ:

"ماذا.. ؟"

لقد أبهرته بالتأكيد.. لقد غيرت وجهة نظره عنّي.. الآن سيتكلم بجديّة..

تمتم وكأنه يحدث نفسه: "روسيا.. ؟؟؟"

حدق بوجهي للحظة ثم همس:"إنها فكرة عبقرية.. !!"

وقبل أن أعقب استدرك وفي عينيه نظرة مستقبلية حالمة..

"(أنوار فى روسيا) !.. فيلم الموسم!"

"ما كنت أعنيه هو التعتيم الإعلامي الغربي حول الـ.. "

رفع إصبعه أمام وجهي وهمس: "لحظة!" ثم التقط هاتفه وطلب رقمًا و.. .

"هاللو يا ست الكل.. أنا أسير هواكِ يا قمر الزمان.. ممم.. لا.. لا توجد حفلات.. أنا عندي لك فكرة فيلم يجنن.. فيلم في (روسيا) و يدور حول.. ."

مضى يتحدث وأنا أحدق به غير مصدق..

هل هذا هو أكثر الرجال رجولة؟ هل هذا هو الكاتب الصحفي المرموق؟

هل وصلت حالة الفصام التي نعيشها إلى هذا الحد.. المبادئ والقيَم والـ... مهلًا.. !

اللعنة.. ! يالي من أحمق.. (ش.ك) الذي أقصده يكتب عامودًا يوميًّا وليس أسبوعيًا ويكتبه في جريدة (الأمة الجديدة) وليس فى جريدة ال..

اختطفت الهاتف من يده.. نظر الىّ مصعوقًا.. فبادرته محتدًا:

"ما اسم الجريدة التي تعمل بها؟"

"ماذا؟"

"اسم الجريدة.. اسمها.. إسمها"

تراجع مذعورًا وهتف: "(الفنون الراقية).. جريدة (الفنون الراقية)!"

تنهدت مرتاحًا واعتلت شفتيّ ابتسامة راضية وناولته الهاتف فأخذه منّي بيدٍ ترتعش.. رميته بنظرة ساخطة ثم نهضت وانصرفت بعدما أشرت للساقي أن يأخذ منه ثمن مشروبي.. !

وفي الطريق الخالى أخذت أفكر بأسى في ذلك المأفون، وكيف تخدعنا المظاهر برغم خبراتنا وفراستنا..

لقد تعلمت الدرس.. لن أتحدث إلى غريبٍ في مقهى بعد الآن..

مهما كنت أظنه فى منتهى الرجولة.. .. !

obeikan.com

ترتيبات !

obeikan.com

الشعور بالأمان..

إنه ذلك الإحساس الذي يراود المدخّن حين يقف خلف نافذته المغلقة في ليلة شتوية ممطرة وهو يطالع بعينيه علبة سجائره المنتفخة ويدرك أنه بإمكانه تلويث صدره كيفما يشاء حتى تشرق الشمس وتفتح الدكاكين أبوابها..

إنه ذلك الإحساس حينما تحتويك سيارتك وتدير مفتاحها فيستجيب لك المحرك بصوته الدافئ العميق وتعرف أنها ستنصاع لأوامرك وتقودك حيثما تشاء..

إنه ذلك الإحساس الذي يراودك وأنت تدخل منزلك المظلم والرهبة تعبث برأسك ثم تضغط مفتاح الكهرباء فيغرق المكان في طوفان من الضياء ويذهب الجزع بعيدًا..

إنه مزيج من الرضا والقناعة والهدوء..

الإحساس بالأمان رائع.. أتمنى لو أحسسته من قبل!

ولكن بعض البشر كتب عليهم أن يحيوا حياة غير آمنة..

بعض الوظائف تجبر أصحابها على الحذر والتوجس في كل خطوة كرجال الأعمال ورجال السياسة..

ولم تكن وظيفتي تختلف كثيرًا عن هؤلاء..

مهلًا.. أصغت السمع جيدًا.. هناك أصوات تأتي من بعيد..

بالتاكيد هو شيء مهم أن تشعر بالأمان.. لا أشياء تؤرّقك ولا مخابيل يطاردونك.. فقط أنت من يتحكم بالأمور..

منذ أن كنت طفلًا والشعور بالفزع يطاردني ولم أكن أملك رفاهية الشكوى..

كانت الدنيا من حولي كلها حقائق سخيفة يجب أن أتعايش معها.. أب مقامر سليط اليد واللسان.. وأم مستاءة وتعيسة على الدوام.. وإخوة مشردون وغائبون.. وأصدقاء مؤقتون..

اللهو والتنزه وامتلاك الألعاب كانت أحلامًا لم تتحقق أبدًا..

الشيء الذي كان يتحقق دومًا هو شجار أبي مع الدائنين ومع أمي.. وصراخ أمي في وجهي إذا رأتني أنظر إليها وهي تبكي.. وكانت دائمًا ما تبكي ..

حتى أقاربنا كانوا منفرين وبغيضين.. لم أحظَ قَط بحنان عمة أو مودة خال..

كنت طفلًا في السادسة من عمري وعندي ثلاثون عامًا!

دومًا ما كنت أجلس أمام باب بيتنا في الحارة الضيقة أتابع المارة وبداخلي أقسم أن لا أكون مثلهم..

ومرَّت الأيام والسنوات..

مات الأب وهربت الأم وتفرق الجميع..

وأصبحت الحياة غليظة كقلب أفعى وجافة كحلق (إبليس) يوم القيامة..

لكني وجدت لنفسي في النهاية طريقًا مميزًا أسلكه.. وجدت أخيرًا مكانًا يستوعب إبداعي..

في دنيانا هناك نوعان من البشر.. الفائزون والخاسرون.. ولابد أن تقرر مسبقًا مع أي فريق أنت.. احسبها كما تشاء.. بالفلسفة أو بالدين أو بالقوة.. فقط عندما تجد نفسك في معسكر الخاسرين لا تبدأ بالعويل والشكوى من عبث الأقدار وقسوة الزمان..

ولم أكن أحب الخاسرين كثيرًا.. لقد عاشرتهم وترعرعت وسطهم ونالني منهم ما يكفيني..

أخذت أشق طريقي الجديد بامتياز وثقة.. ورويدًا رويدًا بدأت أعرف طعم الثراء الساحر..

وفي يوم أسطوري رائع، قابلتها، وحينها تبدل كل شيء.. فهي لم تكن ككل النساء.. لم يكن حديثها مثلهن ولم يكن عقلها مثلهن!

أسرتني بهدوئها وبهائها وطيبة قلبها..

لم تكن تعرف شيئًا عن الماضي ولا عن وظيفتي الحساسة.. وأنا لم أخبرها بالطبع

لا أعرف هل هو حرمان السنين والرغبة الملحّة في أن أكون سعيدًا لمرة واحدة في حياتي.. أم هي هرمونات الذكورة تعبث بعقلي! المهم أني عشقتها كالمجنون ومن بعدها تحولت الحياة على شيء قابل للحياة!

ما زالت الأصوات تعبث هناك.. ابتلعت لعابي وأنا أحدّق في الظلام منتظرًا أية حركة مريبة..

كلما تذكرتها هدأت نفسي وزالت هواجسي..

أغمضت عينيّ لأسترجع صورتها وهي تضحك..

حينما تضحك كان الكون كله يقهقه ويستلقي على قفاه.. أسراب الطيور تضحك.. وذرات الهواء تضحك.. حتى الشياطين تترك ما تفعله من خراب ومصائب لبني البشر وتضحك..

كيف أترك إنسانة بهذا النقاء وذاك الحبور وأنا من عاش سنوات عمره في التعاسة والهم ؟!

كانت وسيلتي لأنجو من حياتي البائسة.. .كانت هي طريق الخلاص..

كانت شعوري بالأمان.. كانت هي علبة سجائري الممتلئة ومحرك سيارتي الدائر والضياء الذي يغمر نفسي بالطمأنينة..

وكانت هي تحبني أيضًا.. اعترفت لي بهذا وشفتاها ترتعشان وغشاوة من دموع الفرح تغلّف عينيها عندما طلبت منها الزواج.. لقد كانت صادقة في مشاعرها.. لم تكن رخيصة ككل من عرفتهن قبلها..

الخطوة التالية كانت الترتيب للزواج والبُعد عن الماضي العفن الذي يمسك بتلابيب حاضري..

هذه الخطوة كانت تحتاج إلى ترتيبات وتجهيزات تتعلق بحساسية وظيفتي.. هناك الكثير من الاتفاقات لابد أن أنتهي منها قبل موعد الزواج.. لا أريد أي أمور عالقة تكدر صفو حياتي مستقبلًا..

وبدأت العمل ليل نهار.. رغم الأخطار التي كانت تلاحقني بلا هوادة

لكني تحملت كل شيء من أجل من أعطتني سببًا للحياة.. لقد قررت أن أجعلها أسعد امرأة في التاريخ!

مهلًا .. لقد خفتت الأصوات.. ودبَّ الصمت مجددًا.. أخيرًا لا أحد في المكان..

تنهدت في صمت وبظهر يدي مسحت قطرات العرق من فوق جبهتي..

نهضت واقفًا مكاني وبحذرٍ أضأت مصباحي الصغير.. ثم أخرجت من جيبي بعض الأدوات..

وبدأتُ من جديد أحاول فتح خزينة النقود اللعينة.. !

شيء مؤقت!

obeikan.com

obeikan.com

رائحة التبغ على أصابعك بعد أن تطفئ السيجارة..

طعم الحلوى فوق لسانك بعد أن تنتهي من أكل لوح من الشوكولاتة..

أصداء الصوت في أذنيك لبوق سيارة سمعته منذ لحظات..

شيء مؤقت.. !

كذلك كانت هي في حياته.. شيء مؤقت..

القليل من المرح والكثير من المعاناة..

قصة حب فاشلة لا تختلف في خطوطها العريضة عن أي قصة حب أخرى فاشلة..

لكن ضوضاء الحياة ومشاكلها كفيلة بأن تنسيك مثل هذه الأشياء..

ولكنك تذكرها بغتة وبكل تفاصيلها حينما ترى أمامك أحد أبطال القصة..

أو بالأحرى.. حينما ترى أمامك البطلة الرئيسية !

كانت تقف أمامه.. تنظر إليه في ثبات.. نظاراتها الشمسية معلّقة فوق شعرها الأسود الطويل..

نفس الملامح وبنفس الجمود.. مازالت كما هي حينما رآها آخر مرة منذ عشر سنوات.. !

ابتسم وهز رأسه.. فهزت رأسها بدورها..

كانا في مكتب لشركة الطيران.. كان هو ذاهبًا إلى أوروبا في رحلة عمل ..

صدفة .. !

سخيفة كانت أم لطيفة ليست هذه المشكلة.. الأهم هو كيفية التعامل مع تلك الصدفة ..

أيكون هو الرجل الواثق الشامخ ويلقي التحية ويسألها عن أحوالها والابتسامة تملأ شفتيه وكأن شيئًا لم يكن..

وكأنها لم تسلب عينيه النوم أسابيع وشهورًا.. ؟ وكأنها لم تبع حبه وإخلاصه لأول (عريس جاهز) على حدِّ قولها وقت ذاك..

أم يوبخها ويلعن ذلك اليوم الأسود الذي رآها فيه أول مرة.. ؟

حينما افترقا أو بالأحرى عندما تركته بعد حب دام عدة سنوات.. وقتها لم يقل شيئًا..

كانت الصدمة أكبر من أن يتخيلها.. فظل صامتًا محافظًا على الباقي من كبريائه المفتتة..

فهل يعوض ما فاته الآن؟؟

أم يتباهى أمامها بزوجته الجميلة وأطفاله الرائعين والدنيا التي فتحت أبوابها له بعد أن افترقا؟ وكأنها كانت هي شؤمًا عليه وأنها أحسنت صنعًا حينما تركته ورحلت.. !

كان الخيار صعبًا..

من المستحيل أن يصطنع إحساسًا ما أمامها.. ستعرف حتمًا أنه يكذب..

ومن المستحيل أن يختار شيئًا من تلك الأحاسيس التي تثور بداخله لأنه بالفعل يريدها كلها..

يريد أن يريها صورة زوجته وأطفاله.. و يدعوها لتركب سيارته الفارهة..

يريد أن يخبرها عن حسابه في البنك..

يريد أن يوبخها و يقول لها كم كانت ظالمة ..

يريدها أن تعرف أنها كانت شيئًا مؤقتًا في حياته لم يقف كثيرًا عنده..

يريد أن يراها تئن وتبكي وتنهار.. يريد أن يسمعها تلعن اللحظة التي تركته فيها..

يريد منها أن.. . تعتذر.. !

ربما وقتها.. يخبرها أنه يفتقدها.. !

وربما يسألها عن أولادها.. وإن كانت سعيدة في حياتها أم لا..

وربما يذهبا لتناول الغذاء في مطعمهما القديم المفضل..

ربما ينسى إساءاتها.. ربما رجعا أصدقاء.. من يدري.. ؟

ولكن في تلك اللحظة.. نهضت وتركت مقعدها الذي كانت تجلس عليه..

لقد كانت أشجع منه.. لقد قررت كسر حاجز (اللا فعل) الذي كان بينهما..

إنها تتجه نحوه حيث يقف.. لابد عليه أن يحسم أمره..

جفاف حلقه لا يوصف وضربات قلبه يضفى صوتها على ضجيج المكان..

فتح شفتيه ليبدأ بالكلام حينما تصل إليه.. اقتربت أكثر..

لا يدري كيف سيبدأ الحديث لكنه بالتأكيد سيجد ما يقوله..

اقتربت منه تمامًا.. وتوقفت..

طالعته بنظرة ثابتة.. لثانية واحدة.. ثم..

أكملت طريقها للموظف الجالس خلفه.. تسأله عن شيءٍ ما..

.....

أجل ..

لقد أثبتت بالفعل.. وللمرة الثانية.. .أنه كان بالنسبة لها..

شيء مؤقت !

obeikan.com

obeikan.com

بسيوني

obeikan.com

صحت مناديًا الساقي وأنا اصفق: يا (بسيوني) يا (بسيوني)!! وأتى (بسيوني) تجاهي وهو ينظر إليَّ بوجهه المجهد المفزع.. كان (بسيوني) يعطيني الانطباع بأنه حانق على الدوام ومرهق للأبد ويعيش حالة مستمرة من الملل المبرح.. كان ذلك العجوز الستيني حاد النظرات قوي البنية قليل الكلام ودائمًا ما ينظر إليَّ بارتياب غير مبررٍ رغم محاولاتي الحثيثة للتودد إليه وإعطائه (بقشيش) سخي في بعض المرات..

خلاصة الحديث عن ذلك الساقي الرابض في مقهاي المفضل هي: أنني أخشاه حتي النخاع!

واحد شاي يا (بسيوني) من فضلك..

حدّق بي للحظة كعادته المرتابة قبل أن ينسل ببطءٍ وبدون أي تعليق بين الطاولات القليلة المتناثرة .

نظرت إلى صديقي (كمال) وهو يستلذ بامتصاص دخان لفافة التبغ تلك بين أصابعه ببطء قبل أن يطلقه على شكل دوائر رمادية سرعان ما تذوب في الهواء البارد من حولنا.

يا أخي أقول لك إنني في مشكلة وأنت تعبث بدخان سيجارتك كالأطفال؟

التفت إليَّ وعلي شفتيه ابتسامة باهته و بدا وكأنه يفكر!!

كان (كمال) من أسرة ميسورة الحال.. كان يعمل موظفًا في وزارة الثقافة وكان يكتب مقالات بالقطعة في بعض الصحف المغمورة التي لا يقرأها هو شخصيًا.. تعارفنا في المقهى وكنت أرتاح كثيرًا عندما أفضفض معه في مشكلاتي الحياتية المعتادة لأنه كان منصتًا رائعًا وقليل التعليق.. وغريب الأطوار!

يا (كمال) بأقول لك إنهم قرروا خفض راتبي في الشركة وأنا كنت أعوّل على علاوة إضافية وزوجتي تقتلني بمصاريفها والأولاد تكاليف دراستهم

تفوق الوصف.. والشقة تحتاج على إصلاحات عاجلة.. .لا أعرف كيف أتصرف.. إنها مصيبة !

مال تجاهي عبر الطاولة المعدنية الرخيصة التي تفصل بيننا وحدّق في عينيّ للحظة قبل أن يقول بلهجة ساخرة:

مصيبة؟؟ هل تظن أن مشكلتك تكمن في زوجة وطفلين ومدير فظ.. ؟؟

رفعت أكتافي وطويت شفتيّ وكأنني لا أجد ما أعترض عليه في جملته.. أجل هذه هي مشكلاتي.. !

ولكن لم يكن من المعتاد على (كمال) أن يعقّب على كلامي قبل الآن.. لا أدري ما الذي ألمَّ به.. ربما لفافة التبغ هذه غير بريئة!! كان الأمر مباغتًا لي بكل أمانة وكأنني أرى صورتي في المرآة تتحاور معي!

استرسل (كمال) في حديثه :

ألا تدرك أبعاد المؤامرة ؟؟ ارفع بصرك لأعلى قليلًا يا عزيزي إلى السماء السوداء هناك.. هل ترى النجوم المتناثرة.. إن الضوء الذي نراه بأعيننا الآن قد تركها منذ آلاف السنين كي يصل إلينا..

هززت رأسي وأنا أرفع رأسي للسماء التي ملأتها الأتربة وسحابات الدخان.. وحاولت أن أتخيل صورة للسديم الكوني الذي نراه في البرامج العلمية ومجلات الفَلَك ولا أدري حقًّا كيف صوروه من تلك الزاوية العلوية الشاهقة ونحن لم نغادر حتى مجموعتنا الشمسية قبل الآن.. المهم أنني تمتمت :

سبحان الله.. الحقيقة هو تصميم إلهيّ عبقري ولاشك... لكن مال النجوم بمشكلتي يا عبقري.. ؟

أكمل متحمسًا وهو يلوّح بذراعيه:

يجب أن ترى الصورة كاملة.. هل تظن أن مشكلتك تنحصر فقط في شركة تقلص مصروفاتها على حساب موظفيها؟ يا صديقي وحدة قياس المسافات في هذا الكون الفسيح من حولنا هي سنوات الضوء.. هل تتصور.. ؟؟ لماذا كل هذه المساحات الشاسعة؟؟ هناك عوالم أخرى ترانا و تسمعنا ونحن لا ندري عنها أي شيء.. هل وصلتك فكرتي؟؟

- ... !!

رفع كفه في وجهي حاسمًا قيل أن يواصل:

أتشتكي من الزحام والمرور وارتفاع الأسعار..؟ حسنٌ يا مسكين.. إليك الخلاصة.. هناك منذ ملايين السنين.. هناك في مملكة ربانية مبهرة خلابة حيث لا يوجد شر.. حيث الكل أخيار.. في يومٍ ما أبدعَ الخلّاق العظيم كائنًا جديدًا وأسماه (آدم).. كائن مصنوع من الطين.. ضعيف البنية.. محدود الحواس.. لا يطير.. لا يسافر بين الكواكب والنجوم.. وجمع الله كل مخلوقاته وأمرهم بالسجود للكائن الجديد.. ! وفي لحظة خالدة قلبت نظام الكون بعدها رفض (إبليس) السجود.. .فطرده الله من مملكته وحكم عليه بالحرق في جهنم.. وبدلًا من أن يطلب المأفون (إبليس) الصفح والغفران تحدى ملك الملوك وأقسم بعزته إنه سيجر معه إلى الجحيم نسل هذا المخلوق الغريب (آدم) عن بكرة أبيهم.. ! و زُج بنا نحن في صراع أبديّ لا ناقة لنا فيه ولا جمل.. صراع غير متكافئ بين أقوى مخلوقات الله وأشدها عنفًا وخبثًا وبين أكثر مخلوقات الله غرورًا وغباءً وعصيانًا.. !

أتى (بسيوني) ووضع كوب الشاي أمامي ثم تمتم ممتعضًا بشئٍ ما عندما شمّ رائحة دخان سيجارة الأخ (كمال) الذي أكمل منفعلًا:

أتحسب أن المشكلة في زوجة وأطفال؟؟ ألا تدرك يا صديقي حجم المؤامرة التي تحاك لجنسنا لكي نُلقى في غياهب الجحيم.. هذا ليس تخمينًا أو خيالًا علميًا.. إنه يقين ولكن صخب الحياة ومشاكلها التافهة ينسينا دومًا

معركتنا الأعظم، وفي لحظة ما سينتهي دورك في الرواية.. ستغادرك روحك وسيُزج بك في القبر.. ثم تدخل عبر البوابة وحيدًا إلى عوالم غريبة..

سحب دخان سيجارته(المشكوك في أمرها).. وأطلقه ببطءٍ وبصوتٍ خفيضٍ متوتر أكمل:

وبعد جلسة حساب أسطورية وعصيبة وطويلة.. ستسير على صراط غير معلوم الخصائص.. ستتمنى أن تصل للجهة الأخرى حيث تفوح رائحة الياسمين وأنهار الخمر.. ولكن أمامك وخلفك يتهاوى الآخرون عن ذلك الصراط لتبتلعهم أمواج الجحيم الأسود المستعر في الأسفل وهم يصرخون فزعًا وألمًا.. وأنت تقول لنفسك هل سأكون مختلفًا عنهم؟ هل سأصل للجهة الأخرى أم سأهوى معهم الآن.. ؟!

توقف (كمال) أخيرًا عن الحديث.. مدَّ يدًا مرتعشة منفعلة وقبض على كوب الماء وتجرعه بأكمله.. يبدو أن المسكين يعاني خللًا نفسيًا ما لم يخبرني عنه قبل الآن.. !

نظر إليَّ و قال وهو يهز رأسه أسفًا والماء يقطر من شفتيه:

و تقول إن لديك مشكلة في سباكة الحمام.. عار عليك !

ثم نهض وألقى ببقية لفافة التبغ في كوبي الممتلئ بالشاي الدافئ الطازج وانصرف غاضبًا وهو يترنح !!

.. ..!

بقيت لحظات مشدوهًا محملقًا في الكوب كالتمثال.. صدري يعلو ويهبط من فرط الانفعال.. فأنا لم أذق بعد رشفة واحدة من كوب الشاي.. والآن (عُقب) السيجارة يطفو على سطحه وسط مجموعة من الفقاقيع المنمنمة .. اللعنة يا (كمال) لقد كان تصرفا مبالغًا فيه.. !

Obeikan.com

لقد جئت إليه أشتكي من العمل ومصاريف الحياة فوجدت نفسي وجهًا لوجه مع نجوم وشياطين وسنوات ضوئية..

لو رأى (بسيوني) باقي السيجارة يطفو على سطح الشاي في أحد أكوابه الثمينة لن تنتهي ليلتي على خير.. لقد رأيته يفتح رأس أحد الزبائن قبلًا ولنفس السبب..!

بدأت أتلفت حولي بحذر.. سأدع موضوع العفاريت والجحيم الأسود قليلًا.. يجب أن أفكر في كيفية الهروب وبمنتهى الهدوء بعيدًا عن جحيم (بسيوني) !!

تمَّ بحمد الله وفضله

د.شريف محمد محمد ثابت

drsherifsabet@gmail.com

القاهرة

2015

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com
ت -02 35860372- 011-27772007

obeikan.com